سلسلة تصدر عن مجلة البيان



العلمانيون وفلسطين

ستون عاما من الفشل

وماذا بعد ؟

تأليف

د. عبد العزيز مصطفى كامل

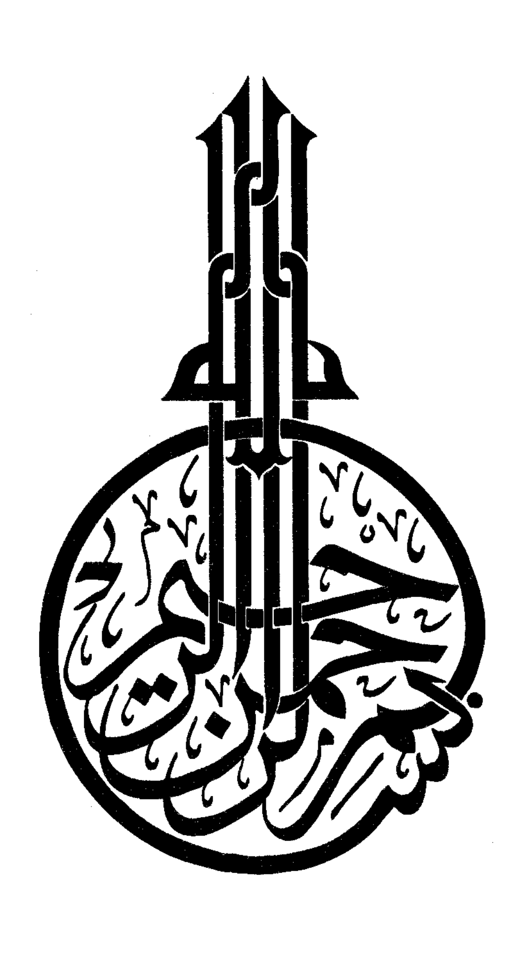
العلمانيون وفلسطين

ستون عاماً من الفشل..

وماذا بعد؟!

تأليف

الدكتور عبد العزيز بن مصطفى كامل


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد كنت قد كتبت سلسلة مقالات في مجلة البيان قبل عشر سنوات من هذا العام (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م)، بمناسبة مرور خمسين عاماً آنذاك على بداية ما كان يسمى بـ(الصراع العربي الإسرائيلي)، وكان ذلك تحت عنوان (خمسون عاماً من الفشل)، رصدت في تلك السلسلة باختصار مراحل ذلك الصراع الذي فُرض على أمتنا قسراً وقهراً، دون أن يكون لها من القيادات أو الرايات أو الاستعدادات ما يناسب مثل تلك الصراعات المصيرية؛ حيث إن ذلك الصراع كان يحتاج منذ بدايته إلى من يفهم طبيعة المعركة وطبيعة العدو الذي يديرها، وطبيعة الحلف الذي يقف خلفه، فيتعامل معهم على أساس الفهم الصحيح لتلك الطبائع.

ولمَّا كان أعداؤنا قد وجدوا من يواجههم بغير السلاح الذي رفعوه، وبغير التوجه الذي تبنّوه، وهو التوجه الديني الاعتقادي، الذي ما كان ليخفى إلا على من عمي أو تعامى؛ فقد تسبب ذلك في حدوث سلسلة متواصلة من الفشل والإخفاقات، صار طولها الآن ستين عاماً، وذلك في جولات الحرب أو محطات السلام، وكانت نهاية ذلك ما تعيشه الأمة اليوم من حالة تعيسة بئيسة، في ظل أوضاع شاذة صارت تحكم مسيرة هذا الصراع؛ أبرزها: تخلي معظم الأنظمة

العربية ـ إن لم تكن كلها ـ عن نهج المواجهة المسلحة مع العدو اليهودي، الذي لا يزال في أوج استعداداته العتادية، وإمكاناته العسكرية، ومطامعه الإقليمية، وهو ما انبنى عليه فقدان البُعد العربي بعد استبعاد البُعد الإسلامي في المعركة مع اليهود، بل وصل الأمر إلى تخلّي أصحاب القضية المفترضين أنفسهم، الذين يعدّون «الممثل الشرعي والوحيد» للشعب الفلسطيني ـ كما يُقال ـ وهم منظمة التحرير الفلسطينية؛ عن نهج المواجهة المسلحة لذلك العدو المسلح بكل أنواع التسلح، واقتصارهم في خيارهم «الاستراتيجي»، على نهج السلام أو الاستسلام لذلك العدو!!

وقد جرت محاولات علمانية[1] لتعميم هذا الاستسلام على الأمة كلها،

---

(١) نظراً لتكرار هذا المصطلح كثيراً خلال هذا الكتاب، ولأن الكثيرين لا يزالون لا يعرفون شيئاً عنه؛ فمن المناسب هنا إلقاء إضاءة سريعة عن ذلك المصطلح، فلفظ (العلمانية) ترجمة خاطئة لكلمة (سيكولاريتي) Secularism، في الانجليزية، وهي كلمة لاصلة لها بالعلم. والترجمة الصحيحة لتلك الكلمة هي: (اللادينية) أو (الدنيوية) أي: الحياة بلا دين. ولذلك عرَّفت دائرة المعارف البريطانية (العلمانية) بأنها: (حركة اجتماعية تهدف إلى تحويل اهتمام الناس عن أمور الآخرة إلى أمور الدنيا وحدها)، وعرفها قاموس العالم الجديد بأنها: (الاعتقاد بأن الدين لا دخل له في شؤون الدولة والتربية العامة).

ويقول معجم إكسفورد في شرح كلمة (secularism): «دنيوي أو مادي، ليس دينياً ولا روحياً، مثل التربية اللادينية، وكذلك الفن والموسيقى اللادينية والسلطة اللادينية. وهي تعني: الرأي الذي يقول إنه لا ينبغي أن يكون الدين أساساً للأخلاق والتربية».

والتعبير الشائع في الأدبيات العربية والإسلامية أن العلمانية هي فصل الدين عن السياسة، والأصح أن معناها: فصل الدين عن الحياة على مستوى الفرد أو المجموع. لكن هناك علمانية غير معادية للدين، وهي الموجودة في المجتمعات الرأسمالية الليبرالية، وعلمانية معادية للدين وهي الشائعة في المجتمعات الإلحادية الشيوعية، لكن كليهما مناقض للإيمان، وبعضهم=

على صورة «تطبيع للعلاقات» مع ذلك العدو، يُراد من خلاله أن تعامِل الشعوب العربية والإسلامية ذلك العدو معاملة طبيعية مع بقاء عداوته وتصاعدها، وهي معاملة يمكن أن تقنعه فعلاً أنه «الشعب المختار» الذي تنبغي مصادقته مهما تجبر أو تكبر!!

إن «علمانية المعركة» كانت هي الشعار المرفوع من طرف العرب في السر والعلن، وبواقع الحال إن لم يكن بلسان المقال، والمسوّغ المعلن في ذلك كان ولا يزال: حرمان العدو من تحويل الصراع إلى صراع ديني!!

ومع أن الأيام تكشف أن ذلك الصراع بدأ دينيّاً، حتى قبل وقوع النكبة عام ١٩٤٨، فإن تلك الذريعة الشنيعة ما كانت تصلح لتجريد المعركة من بُعدها الديني من جانبنا، فلو فرضنا جدلاً أن عدونا الذي اغتصب أرض بيت المقدس، هو مجرد عصابات أو جماعات علمانية غير دينية، بل إلْحادية؛ فما المانع من أن نواجه هؤلاء الملحدين بسلاح العقيدة والدين، كما واجه أسلافنا أعداءهم المشركين بدءاً من

= يفرق بين (العلمانية الشاملة) التي تفصل الدين عن الحياة كلياً، وبين (العلمانية الجزئية) التي تفصل الدين عن شؤون الدولة فقط، فيقبل هؤلاء الثانية ولا يقبلون الأولى، وكلا النظرتين في التعامل مع الشريعة في الإسلام، كفر بيِّن لمن اعتقده عالماً قاصداً، فلا يقبل فصل الدين عن الحياة أو فصل الدين عن الدولة.

اقرأ عن العلمانية: (الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه) للدكتور يوسف القرضاوي، وكتاب (العلمانية: نشأتها وتطورها وآثارها) للدكتور سفر الحوالي، و(العلمانية: أسباب ظهورها وعوامل انتقالها للعالم الإسلامي) تأليف بندر بن محمد الرباح، و (مذاهب فكرية معاصرة) للاستاذ محمد قطب، و(العلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية) للدكتور عبد الوهاب المسيري، و (العلمانية: التاريخ والفكرة) د. عوض القرني.

كفار قريش وانتهاءً بملاحدة الروس، مروراً بالتتار والمجوس والهندوس، وكافة الملل التي لا تدين إلا بدينٍ باطل أو بلا دين على الإطلاق؟!

إننا لو فرضنا أن هؤلاء اليهود الذين أتوا إلى فلسطين لاحتلال الأرض المقدسة وسلب المسجد الأقصى، لم يكونوا يؤمنون بتوراة ولا تلمود، ولا يقولون: إنهم «شعب الله المختار» القادم إلى «أرض الميعاد»؛ لو فرضنا ذلك لكان واجبنا مع ذلك ألا ندخل المعركة لإنقاذ المقدسات منهم إلا تحت راية القرآن الأقدس، طالبين تنزل النصر الإلهي على من ينصر دين الله، ويجاهد في سبيل الله مَنْ كفر بالله.

لقد تلقّت الأمة دروساً عملية واضحة في العقود والسنين الأخيرة، تؤكد أن رفع المسلمين للراية الإسلامية في معاركها المصيرية في بقاع شتى من الأرض؛ قد أعطى ثمرات لم نكن أبداً نراها طوال معارك الأمة مع أعدائها تحت الرايات العلمانية.

ويكفينا في ذلك أن نقول: إن جهاد خمس سنوات من عمر المقاومة في العراق مثلاً ضد أمريكا تحت الراية الإسلامية - على ضخامة قوة الأمريكان وفداحة خطرهم - قد فاق بمراحل كبيرة، ما أنجزته الزعامات العلمانية خلال الأعوام الستين من عمر القضية الفلسطينية، هذا إن فرضنا أنه كانت هناك لهم إنجازات مؤثرة أو حقيقية.

فإذا وضعنا في الحسبان أيضاً الفارق الكبير بين قدرات العدو الأمريكي في العراق والإسرائيلي في فلسطين، وبين القدرات المادية والعسكرية المحدودة للمقاومة العراقية، مقارنةً بإمكانات مجموع العروش والجيوش العربية؛ لتبيّن من مجموع ذلك حقيقة الفرق بين القتال تحت راية إسلامية، والقتال تحت رايات «عمية»، ودعوات جاهلية.

لقد رأيت مع إخواني في مجلة البيان، أن نعيد نشر تلك الحلقات السابق نشرها منذ عشر سنوات، بعد مزيد من الإضافة والتدقيق، وإلحاق مستجدات تلك الأعوام بعد الخمسين، وهو ما يثبت أن القوم المتصدرين في واجهة ذلك الصراع، لا يزالون يصرّون على نهج المكابرة والمغالطة والخداع للأمة، ولا يزالون سائرين في طريق (الفشل) في مواجهة ذلك العدو، تاركين مواجهة ذلك العدو المتجبر إما للمستضعفين من أهل فلسطين وحدهم، أو لبعض الكيانات الطائفية التي تتاجر بالقضية، وقصارى مطامحها من الوقوف أمام ذلك العدو، هو أن «تحتل» بدلاً منه تخوم أراضي بيت المقدس، لمطامح إمبراطورية خارجية، أو مطامع مذهبية مناهضة لسواد الأمة من أهل السنة والجماعة؛ تمشياً مع سياسات لا علاقة لها بمصالح العرب والمسلمين.

ولقد مضى في الخامس عشر من شهر مايو لعام ٢٠٠٨م ستون عاماً على إعلان قيام دولة اليهود (إسرائيل)، تلك الدولة المسخ التي زرعتها أحقاد الغرب، بينما تعهدتها بالرِّي والنماء أخطاء العرب.

نعم، فما كانت (إسرائيل) لتبقى وتعلو - أو لتوجد أصلاً - لولا سلسلة من أخطاء تترادف وخطايا تتراكم، ممن وضعوا أنفسهم دون هوية دينية في واجهة هذا الصراع ذي الصبغة الاعتقادية؛ حيث تعمّد العلمانيون - عن سابق إصرار وترصد - أن يفرِّغوا هذا الصراع من محتواه الاعتقادي وخلفيته الدينية من جانبنا، في مقابل تعمّد الآخرين عن سابق إصرار وترصد أيضاً أن يصبغوه بالصبغة الاعتقادية في أبرز معالمه من جانبهم، بدءاً من اختيارهم اسم هذه الدولة (إسرائيل)، على اسم نبيٍّ هو يعقوب عليه السلام، ورمزها (نجمة داود)، التي ترمز لسطوع عصر المسيح

المنتظر من نسل داود، ودستور تلك الدولة (التوراة)، حيث لم يوضع لدولتهم دستور مكتوب غيرها، وأيضاً شعار تلك الدولة (أرض الميعاد من النيل إلى الفرات)، المرموز له في العَلَم الإسرائيلي بالخطين الأزرقين، وكذلك حلم هذه الدولة التاريخي بإعادة بناء (هيكل سليمان) في (أورشليم القدس)؛ حيث يتطلع اليهود لمجيء ملك من نسل داود يحكمون معه العالم من ذلك الهيكل، الذي اتّخذوا من (الشمعدان) الذي يضيء داخل (قدس الأقداس) داخله، شعاراً لجهاز الدولة وأنظمتها.

أما بنو قومنا الذين تصدّروا في واجهة المواجهة (الرسمية) لليهود، فإنهم تحت الرايات العلمانية المتعددة، جدّوا واجتهدوا في إبعاد الإسلام عن المعركة، وإقصاء القرآن عن توجيهها، وتنحية العقيدة الحقّة عن مواجهة العقيدة الباطلة، بل بالغوا في ذلك حتى استبعدوا المسلمين غير العرب من المشاركة في المعركة ابتداءً، فأطلقوا على هذا الصراع وصف: (الصراع العربي الإسرائيلي) مرة، و(معركة القومية العربية) مرة أخرى، ثم استجابوا لتسمية التعمية التي أطلقها الغربيون على تلك النازلة، عندما أطلقوا عليها وصف (أزمة الشرق الأوسط)، بمعنى أنها ليست أزمة لباقي العالم الإسلامي في شرقه وغربه، بينما كان في الإمكان حشد الأمة الإسلامية كلها خلف الأمة العربية في هذا الصراع الحضاري المصيري بين أمة الإسلام وعصابة اليهود المتطلعة إلى العلو والطغيان.

لكن الذي حصل ولا يزال يحصل أن القيادات العلمانية أصرت ولا تزال تصر على التصدر في واجهة معركة ليست لها ولا هي أهلها، وتأبى التنازل عن مبادئها المجافية للدين في إدارة ذلك الصراع الذي صغّروه وحقّروه وحوّلوه من

صراع أممي إسلامي، إلى صراع قومي عربي، ثم إلى أزمة لا تخص إلا «دول الطوق»، ثم دول «الصمود والتصدي»؛ لتتحول تلك (الأزمة) بعد ذلك إلى «نزاع» بين الفلسطينيين والإسرائيليين ـ كما يشيع الإعلام العلماني منذ عقدين ـ لينحصر الصراع في النهاية إلى «مشكلة أمنية» بين حماس الإسلامية المحاصرة المطاردة، وبين دولة اليهود التي تساندها قوى الطغيان الدولي كلها!

لذلك لم يكن غريباً ولا عجيباً أن يتسلل ويتسلسل الإخفاق والفشل في الأداء العربي الرسمي طوال تلك العقود السابقة من عمر القضية، سواء في ميادين الحرب، أو على موائد السلام.

ولما كانت هذه الأعوام الستون قد انقضى معظمها في الحروب الفاشلة، بينما انقضى شطرها الآخر في عمليات السلام الخاسرة، فسوف أبدأ أولاً باستعراض جولات تلك الحروب العسكرية الفاشلة، ثم أُثنِّي بمسارات العملية السلمية الخاسرة ومراحلها.

على أنني أنبه على أنه: ليس المقصود بهذه الدراسة التعمق في التحليلات السياسية أو المقارنات التاريخية أو التأصيلات المنهجية، ولكن التذكير بخلاصة الحقائق الكبرى والمعالم الرئيسة، التي تتوه ـ على الرغم من ضخامتها ـ بين ركام التفاصيل الصغيرة التي تزدحم بها ذاكرتنا المنسية.

* * *



القسم الأول

انكسارات حقيقية..
وانتصارات وهمية



الجولة الأولى

حرب النكبة (١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م)

حرب ١٩٤٨م، يسميها اليهود (حرب الاستقلال) ويسميها العرب (حرب النكبة)، وقد انتهت هذه الحرب إلى نتيجة مذهلة؛ إذ تعرضت سبعة جيوش تابعة لسبع دول عربية إلى هزيمة منكرة، لا نقول أمام جيش واحد لدولة واحدة، ولكن أمام عدد من المنظمات اليهودية شبه العسكرية، وهي تلك التي وُحِّدت بعد ذلك تحت اسم (جيش الدفاع الإسرائيلي).. ؛ فما الذي حدث؟

يمكننا التعرف على ذلك من خلال اللقطات التاريخية التالية[١]:

(١) راجع في تفاصيل الحروب العربية الإسرائيلية المؤلفات التالية:
- أصل الصراع العربي الإسرائيلي: (حسني عايش)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط (١)، ٢٠٠٣م.
- إسرائيل في خمسين عاماً: (إلياس شوفاني)، دار جفرا للدراسات، ط (١)، ٢٠٠٢م.
- الصهيونية في مئة عام: (وليام كوانت)، ترجمة هشام شرابي، دار الآفاق الجديدة، ط (١)، ٢٠٠٢م.
- المراحل التاريخية للصراع العربي الإسرائيلي: (علي فتوني)، دار الفارابي، ط (١)، ١٩٩٩م.
- الحروب العربية الإسرائيلية وعملية السلام: (سيدني بيلي)، ترجمة إلياس فرحات، دار الحرف العربي، ط (٢)، ١٩٩٨م. =

* بعدما أصدرت الأمم المتحدة قرارها الظالم في نوفمبر ١٩٤٧م بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، سارع القادة السياسيون العرب إلى اتخاذ قرار بدخول حرب شاملة لـ(تأديب) عصابات اليهود، وكان ذلك القرار حماسيّاً ارتجاليّاً لم يسبقه إعداد أو تخطيط، وقد عارض القادة العسكريون قرار الحرب بشدة في ذلك التوقيت، وحذّروا منه أشد التحذير.

* فوجئ القادة العسكريون باتّخاذ القرار السياسي الفعلي بالحرب قبل بدء تلك الحرب بيومين أو ثلاثة، في وقت لم يكن لدى معظم الجيوش العربية حتى ميزانية تسمح بدخول حرب، ولم تكن دُربت بعدُ على الدخول في حروب شاملة.

* اجتمع رؤساء أركان كل من (مصر والعراق والأردن وسورية ولبنان) قبل الحرب، وأعلنوا الاتفاق على إعداد ما لا يقل عن خمس فرق عسكرية كاملة الاستعداد والتسليح، مع ستة أسراب من المقاتلات والقاذفات، بحيث تكون جميعاً خاضعة لقيادة عربية موحدة، ولكن هذا الاتفاق لم يرَ النور، فلم تُعدّ الفرق، ولم تدبّر الأسراب، ولم توحّد القيادة!!

* لم توضع خطة منسقة للجيوش العربية لخوض الحرب، بل حُدّد لكل

= - إسرائيل الكبرى والفلسطينيون: (نور الدين مصالحة)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط (١)، ٢٠٠١م.
- إسرائيل/ فلسطين، وحرب ١٩٤٨م: (تانيار إينهارت)، دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر، ط (١)، ٢٠٠٤م.
- ضياع أمة: سعيد خليل المسحال، دار ميريت للنشر والتوزيع، ط (١)، ٢٠٠٣م.
- قيام إسرائيل بين أكذوبة الوعد والاستعمار الغربي: محمد علي البقاعي، دار المحجة البيضاء، ط (١)، ٢٠٠٣م.

جيش هدف يصل إليه، وأُجِّل التنسيق إلى ما بعد وصول كل جيش إلى هدفه!!

* لم يتجاوز عدد الجنود العرب الذين سيقوا إلى الحرب خمسة عشر ألف جندي، في حين حشد اليهود نحو ستين ألف مقاتل مجهزين تجهيزاً كاملاً للمعركة التي استعدوا لخوضها قبل عامين من بدئها.

* دخلت الجيوش العربية الحرب في ١٥ مايو ١٩٤٨م، دون أية معلومات عن العدو، بل كانت غالبية تلك الجيوش تقاتل في أرض تجهل طبيعتها وطريقة القتال فيها.

* كان الفيلق الأردني هو الأجود من حيث التدريب والتسليح، ولكنه مع الأسف كان تحت قيادة الجنرال البريطاني النصراني «جلوب»[1].

* على الرغم من كل هذا، فقد دفعت العاطفة الإسلامية الجنود العرب إلى إحراز عدة نجاحات في بداية الحرب، كادت أن تحوِّل الدفة لصالحهم ضد اليهود

---

(١) «جلوب» أو «كلوب» باشا (١٨٩٧م-١٩٨٦م): كان جندياً بريطانياً، ترقى في سلك الجندية حتى قاد الجيش العربي في الأردن خلال الأعوام من (١٩٣٩م - ١٩٥٦م)، ظلّ يدّعي صداقته للعرب وأنه يواليهم أكثر من بريطانيا، حتى «اكتشف» العرب أمر خيانته لهم في حرب النكبة ١٩٤٨م.

وقد قرّب «جلوب» ضباطاً آخرين من الإنجليز في الجيش الأردني، واجتهد في استبعاد الضباط العرب من المواقع المهمة في الجيش. وفي حرب ٤٨، كان القادة العسكريون العرب قد وضعوا خطة عسكرية بنوا حساباتهم عليها، لكن «جلوب» أقدم على تغيير تلك الخطة قبل ٤٨ ساعة من بدء الحرب، وقد أراد بذلك زج الجيوش العربية في وضع حرج، وظلّ «جلوب» باشا يصدر الأوامر التي من شأنها عرقلة أداء الجيوش العربية أمام العصابات الصهيونية، وهو ما أدى في النهاية إلى هيمنتها في تلك الحرب.

المعروفين بالجبن الشديد في القتال، ولكنّ حكومتيْ (بريطانيا وأمريكا) أحسَّتا بذلك الخطر، فسارعتا إلى دفع مجلس الأمن الدولي إلى إصدار قرار بفرض الهدنة بدءاً من يوم ٨ يوليو ١٩٤٨م ولمدة شهر كامل.

* مرة أخرى سقط السياسيون في العجلة، ووافقوا على الهدنة، فتنازلوا بذلك لليهود عن عنصر المبادأة أو المبادرة، وحرص العرب على أن يظهروا بمظهر الحريص على احترام (الشرعية الدولية!) التي لم تحترمهم، والتي زرعت اليهود في أرضهم.

* حرص اليهود على استغلال كل دقيقة من مدة الهدنة لتغيير موازين القوى لصالحهم، وسخروا أشد السخرية من غباء القرار العربي بقبول الهدنة، حتى إن «مناحيم بيجن» ـ الذي أصبح رئيساً للوزراء فيما بعد ـ كتب وقتها يقول: «إننا لا نعرف حتى الآن كيف ولماذا قبلت الدول العربية الهدنة، بعد أن كان الموقف العسكري في صالحها تماماً»!

* بعد انتهاء شهر الهدنة، كان اليهود قد نجحوا في استعادة زمام المبادرة سياسياً وعسكرياً، ثم بدؤوا في حرب استنزاف للجيوش العربية؛ كلٌ على حدة، فقد عادت الحرب ثانية، وكان اليهود هم البادئين هذه المرة، فنفذوا ضربة جوية مفاجئة لمطار العريش في (مصر)، وهو المطار الذي كان يعتمد عليه الجيش المصري؛ لأن بقية المطارات كانت خاضعة للمحتل الإنجليزي، ثم أعقب ذلك قصف جوي لتجمعات الجيش البرية في كل قطاعات القتال؛ ما أدى إلى حالة من الفوضى والارتباك.

* بعد أن حقق اليهود قدراً كبيراً من النجاح، وأصبحوا في حاجة إلى فرصة لالتقاط الأنفاس؛ أصدر مجلس الأمن قراراً بهدنة ثانية، واستجاب العرب مرة جديدة، فأعطوا لليهود فرصة أخرى للمزيد من لمّ الشمل واستعادة النشاط!!

* عادت الحرب للمرة الثالثة بمعارك متفرقة هنا وهناك، إلى أن أصدر مجلس الأمن قراره الثالث بإيقاف الحرب نهائيّاً بعد أن فشلت كل الجهود العربية في إجلاء اليهود عن الأراضي التي احتلوها في فلسطين، وهو ما يعني بعبارة أخرى: الهزيمة في تلك الحرب، والفشل في تحقيق أي من أهدافها!

ومما يجدر ذكره هنا، أن عقد الأربعينيات الذي جرت فيه تلك الحرب، كان قد شهد انتعاشاً في الشعور بالانتماء القومي العربي، حيث بدأ العلمانيون العرب وقتها في الفصل بين مفهوميْ (الأمة العربية) و(الأمة الإسلامية) وتُوِّج هذا الشعور القومي بإنشاء (الجامعة العربية) ردّاً على من كانوا ينادون بالعودة إلى (الجامعة الإسلامية)، التي أسقط اليهود والعلمانيون المنافقون كيانها السياسي الجامع للمسلمين، وهو «الخلافة العثمانية».

* * *

الجولة الثانية

حرب العدوان الثلاثي عام

(١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م)

جاءت الجولة الثانية بعد أن آلت السلطة في بعض الدول العربية إلى أنظمة ثورية، دعت نفسها بالتقدمية، لتزيل آثار العار الذي جلبته الأنظمة «الرجعية»! وكان النظام الثوري العسكري في (مصر) هو المتزعم لها، وقد عدّ من أهدافه الرئيسية المعلنة: تحرير (فلسطين) والقضاء على دولة (إسرائيل)، وجعل من هذا الهدف ـ إلى جانب توحيد العرب تحت راية القومية العربية ـ قضية يبني بها المجد والزعامة. فماذا كان مسلك الثوريين العساكر بعد أن تسلّموا دفّة الصراع ضد اليهود تحت تلك الراية العلمانية الجديدة؟! هذا ما توضحه المشاهد التاريخية التالية:

* كان أول عمل قام به (قائد الثورة) (جمال عبد الناصر) بعد تسلّمه منصب الرئاسة رسمياً؛ هو تأميم قناة السويس في ٢٦ تموز (يوليو) ١٩٥٦م، وكان ذلك قراراً متعجلاً، اتُّخذ دون دراسة أو تحسّب لما يمكن أن يترتب عليه من نتائج، وقد

جاء ردّاً على تصريح لوزير الخارجية الأمريكي وقتها (فوستر دالاس) قال فيه: «إن الاقتصاد المصري منهار»!! إشارة إلى عدم قدرة ذلك الاقتصاد على تمويل مشروع (السد العالي)، الذي كان عبد الناصر قد اتّفق مع الروس الشيوعيين على تنفيذه.

* ثار الغرب الرأسمالي لهذا القرار، وبخاصة ما كان من (إنجلترا وفرنسا)؛ حيث أخذتا في الإعداد لإجراء حاسم، ردّاً على مصر التي اتجهت نحو الكتلة الشرقية، واشترت أسلحة تشيكية. وتواترت الأنباء عن حشود إنجليزية وفرنسية في (قبرص) استعداداً لعمل عسكري ضد (مصر) بالاشتراك مع دولة اليهود، وردّاً على ما عدوه إخلالاً بالصفة الدولية لقناة السويس، ولكن (عبد الناصر) لم يكترث، ولم يأخذ هذه التهديدات مأخذ الجد، بل كان هناك استرخاء عسكري على الرغم مما يجري، حتى إن القيادة المصرية خففت من أعداد القوات المعدَّة للقتال لأسباب غير مفهومة.

* عندما بدأت نذر الحرب، كان اليهود يحتفظون بالتفوق العسكري، مقارنة بالإمكانات المصرية التي يفترض أنها أكبر الإمكانات العربية وأقواها؛ فقد كان التفوق ظاهراً حتى في الجانب العددي البشري، فكان التفوق في المشاة بنسبة ١ : ٣ لصالح اليهود، وفي القوات البرية (الدبابات) بنسبة ١ : ١,٨ لصالح اليهود، وفي سلاح المدفعية بنسبة ١ : ٢,٥ لصالح اليهود أيضاً!

* نسّق اليهود جهودهم مع حلفائهم استعداداً للحرب، فاتفقوا مع فرنسا على تأمين الغطاء الجوي الكافي للمدن الإسرائيلية، على أن يتولى السلاح

البحري تأمين حراسة السواحل الإسرائيلية، وأن تشارك القوات الفرنسية بالقتال ضد أي دولة عربية تدخل الحرب إلى جانب (مصر)، وأُسند إلى السلاح الجوي البريطاني مهمة تدمير الطيران المصري على الأرض.

* وأخيراً اقتنعت القيادة الثورية بأن أمر الحرب جد لا هزل فيه، فبدأت في تركيز الجهود على حماية سيناء من الشرق، بينما أهملت الجبهة الجنوبية إهمالاً مريباً، حيث كان من الغريب أن يخصص لهذه المنطقة الحيوية نحو ١٢٠ جندياً من المشاة لحمايتها!!

* وبدأت الحرب في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٦م، بمهاجمة الخط الأقل خطراً في نظر القيادة المصرية، وهو المنطقة الجنوبية من سيناء، وأعلن اليهود أنهم يقاتلون على بُعد ٤٠ كم من قناة السويس؛ حتى يعطوا الذريعة لكل من إنجلترا وفرنسا للتدخل العسكري، بحجة حماية حرية الملاحة الدولية في قناة السويس.

* وبالفعل أقدم سلاح الجو البريطاني على ضرب الطيران المصري على الأرض، واضطر المصريون إلى القتال دون غطاء جوي على مختلف المحاور، وأبلى المقاتلون المصريون مع كل ذلك بلاءً حسناً في القتال؛ لولا أن الأوامر صدرت من القاهرة للقوات الأساسية بالانسحاب، بعد إنذار أرسلت به إنجلترا وفرنسا. وبدأ الانسحاب ليلة ٣١ أكتوبر ١٩٥٦م، من قطاع إثر قطاع؛ ما سبّب حالة من الارتباك والاضطراب.

* وفي ظل غياب أي غطاء جوي أو طبيعي من جبال أو أشجار، كان

الانسحاب شاقّاً ومكلفاً، فقد أصبحت القوات المنسحبة هدفاً مكشوفاً أمام الطائرات النفّاثة المغيرة، والمحمّلة بكل أنواع الأسلحة المدمّرة والحارقة.

وهكذا انتهت الحرب بهزيمة الجيش المصري وإهانته؛ في حرب بدأتها الدعاية، وأوصلها الغرور إلى أسوأ نهاية، فقد احتُلّت سيناء، ولم ينسحب اليهود منها إلا بعد أن ضمن المصريون لهم السماح بالملاحة في خليج العقبة كيفما شاؤوا.

وكان لبريطانيا «صديق العرب المفضل»، الدور الأكبر في تقديم الجيش المصري لقمة سائغة لإخوان القردة والخنازير، فضربتها التي وُجهت للطيران المصري على الأرض في أول المعركة، هي التي مكّنت اليهود من حسم تلك الحرب، حتى كأنه لم تكن هناك حرب على الحقيقة - كما قال اللواء سعد الدين الشاذلي - لأن الطيران ضُرِبَ على الأرض منذ البداية[1].

لقد أُطلِق على تلك الحرب اسم (العدوان الثلاثي). وعلى الرغم من الهزيمة فيها، فقد عدّها النظام الثوري المصري إحدى أهم انتصاراته، وجعل لها عيداً سنوياً خاصاً هو (عيد النصر)! وكان من أهم نتائجها:

- تزايد التوجهات القومية و«التحررية» في الدول العربية، وبخاصة الشرقية منها، وذلك على الرغم من هزيمة الجيش المصري في تلك الحرب، التي صوّرها الثوريون على أنها من أعظم الانتصارات!!

- قيام ما كان يُعرف بـ(الجمهورية العربية المتحدة) في ٢٢ فبراير (شباط) عام ١٩٥٨م، وقد كانت اتحاداً مؤسساً على مبدأ القومية العربية، بين مصر وسورية،

---

(١) قال ذلك في حديث إلى قناة الجزيرة، ضمن برنامج (شاهد على العصر).

ولكن هذا الاتحاد آل إلى الانفصال عام ١٩٦١م؛ بسبب التناقض بين توجهات القوميين المصريين والانفصاليين السوريين الذين رأوا في توجهات عبد الناصر الانفرادية إضراراً بسورية.

■ «اكتشاف» الأردنيين خيانة بريطانيا للعرب، وإلغاء معاهدة التحالف التي كانت قائمة بين الأردن وإنجلترا منذ عام ١٩٤٨م، وقد أُلغيت تلك المعاهدة عام ١٩٥٧م.

■ انسحاب العراق من حلف بغداد الذي كانت بريطانيا قد أنشأته بالاتفاق مع أمريكا عام ١٩٥٥م لمواجهة المد الشيوعي في الشرق الأوسط خلال الخمسينيات، وكان ذلك الحلف يضم بريطانيا والعراق وتركيا وإيران وباكستان، وبانسحاب العراق في يوليو ١٩٥٨م، حُلَّ الحلف بعد تكرار انسحاب الأعضاء منه.

■ بَدْء تملّص العرب القوميين من مسؤولية تحرير فلسطين، وإسناد تلك المهمة بشكل أكثر تركيزاً إلى الفلسطينيين، من خلال تأسيس منظمة «التحرير» الفلسطينية عام ١٩٦٤م، والشروع في تسليحها وتدريبها، وقد قامت على أسس علمانية وطنية تنظر إلى الأرض المقدسة فقط على أنها «تراب» وطني!! وهو ما بدأ يحوِّل القضية من البُعد القومي الصغير إلى البُعد الوطني الأصغر.

■ ظهور الأهمية الإستراتيجية للكيان الصهيوني بالنسبة للعالم الغربي، وبَدْء التعامل معه على أنه رأس حربة ضد شعوب المنطقة، وهو ما تُرجم إلى تضاعف معدلات تدفق المساعدات الخارجية لذلك الكيان المعادي.

■ خرج الكيان الصهيوني من تلك الحرب بمكسب مهم، وهو اشتراط فتح

خليج العقبة للملاحة الإسرائيلية شرطاً أساسياً للانسحاب من سيناء، وتمكين قوات دولية من المرابطة على الأراضي المصرية التي ينسحب منها اليهود، كذلك حصل اليهود من المصريين على ضمانات تكفل الأمريكيون بإلزام مصر بها، تقضي بأن تجمد الإدارة المصرية الصراع مع الدولة الصهيونية لمدة عشر سنوات!

* * *

الجولة الثالثة

حرب يونيو «حرب النكسة»

(١٣٧٦هـ - ١٩٦٧م)

هي الحرب الثانية في العهد الثوري القومي التقدمي «التحرري»، يسمّيها اليهود (حرب الأيام الستة)، ويسمّيها العرب (حرب النكسة) أو (حرب ٥ يونيو)، وقد كانت عاراً لم تُمسح آثاره إلى اليوم، حيث كان هدف اليهود من دخولها احتلال القدس، فتحقق الاحتلال، ولم تُحرَّر القدس إلى الآن بعد أكثر من أربعين عاماً على احتلالها، بل احتُلّت أراضٍ أخرى لتأمين بقاء القدس بيد اليهود، ولتبقى عمليات المقايضة والمساومة عليها، وكان في مقدمة ذلك احتلال سيناء، التي لم تترك إلا بعد تعهد النظام في مصر بعدم دخول أي حرب «تحرير» أخرى بعد «تحريرها»، وذلك هو ما كان جوهر اتفاقية كامب ديفيد الموقعة عام (١٩٧٨م). وكذلك أخذ اليهود في حرب النكسة من السوريين أرض الجولان، ومن الأردن الضفة الغربية للسبب ذاته، وليكون التخلي عن تلك الأراضي منقوصة السيادة ثمناً للتخلي عن تبني قضية القدس مستقبلاً.

وقد كانت تلك الحرب نقطة تحول خطير في ميزان القوى بين الكيان العدو وبين الأنظمة العربية والإسلامية كافة، وقد اندلعت بعد معلومات مضلّلة، قدمها الروس لرفيقهم الثوري القومي (جمال عبد الناصر)، وكان الروس الشيوعيون يهدفون من إشعال تلك الحرب إلى توريط المصريين فيها ليُقبلوا على شراء مزيد من السلاح الروسي، وكانوا يريدون بالإضافة إلى ذلك؛ إفادة صديقهم الحقيقي في المنطقة وهو الكيان اليهودي المعادي.

وكانت عملية التضليل السوفييتية الروسية تتركز على إيهام المصريين بأن سورية مقبلة على حرب تشنها على دولة اليهود، وقد صدَّق عبد الناصر ذلك، وأعلن حالة الطوارئ، وبدأ في إطلاق التصريحات النارية بتدمير دولة «إسرائيل»، وهو ما استغلّه اليهود واستعملوه ذريعة لبدء الحرب، التي كانوا من طرفهم قد أكملوا الاستعدادات لها.

وفي مقابل إعلان الطوارئ بشكل صوري من الجانب المصري، أعلنت الطوارئ بشكل حقيقي من الجانب الإسرائيلي، بدعوى الاستعداد لهجوم مصري وشيك، وقد بدأ اليهود الحرب بالهجوم الجوي على المطارات العسكرية المصرية في صباح ٥ يونيو ١٩٦٧م، وحلّقت المقاتلات الإسرائيلية على ارتفاع منخفض أدنى من قدرة الرادارات المصرية على التقاطها، وبهذا نجحت تلك المقاتلات في حسم المعركة في ساعاتها الأولى مثلما حدث في حرب ١٩٥٦م، لكن المقاتلات هذه المرة كانت إسرائيلية ولم تكن بريطانية.

وقد فتح ذلك المجال للقوات البرية الإسرائيلية أن تتجول في شبه جزيرة

سيناء، وتتوغل فيها دون رقيب أو حسيب، مدعومة بغطاء جوي قوي. أما الجيش المصري الذي فقد غطاءه، وتعطل عطاؤه، فقد جاءت له الأوامر بالتولي يوم الزحف، فارتبكت قياداته، وشُلَّت قدراته، وتكبّد لأجل ذلك خسائر فادحة دون أي إنجاز يُذكر! وكانت نتيجة ذلك؛ احتلال اليهود قطاع غزة الذي كان تحت الإدارة المصرية، واحتلال أرض سيناء بالكامل، وكذلك نزع الضفة الغربية من الأردن، وهضبة الجولان من سورية! كل ذلك في ستة أيام فقط، كان تخطيط اليهود فيها دقيقاً، بينما كان تخبط القوميين العرب فيها محبطاً. وقد أضاف اليهود إلى أرضهم، بسبب تلك الحرب السريعة (حرب النكسة)، أربعة أضعاف المساحة التي كانوا قد اغتصبوها في (حرب النكبة)!

وإذا استعرضنا أهم تفاعلات تلك الحرب، نجد أنها تؤكد حقيقة الجدية واليقظة التي تعامل بها اليهود مع قضيتهم الباطلة، وتؤكّد في الوقت نفسه الاستهتار والغفلة التي كانت تتعامل بها العلمانية العربية مع تلك القضية المصيرية ولا تزال كذالك. وتعالوا نعيد التأمل بشيء من التفصيل ـ لعلنا ندرك الفارق بين من يقاتل على عقيدة - ولو كانت باطلة - وبين من يقاتل بلا عقيدة:

* تضخم الغرور في الذات اليهودية بعد ما تم إحرازه من انتصارات رخيصة على شعوب مغلوبة على أمرها، في حربيْ (٤٨) و(٥٦)، ولم تكد تنقضي عشر سنوات على حرب ١٩٥٦م حتى تفتحت شهية اليهود لحرب جديدة؛ ففي شهر ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٦م أعلن (ليفي إشكول) رئيس وزراء إسرائيل في ذلك الوقت، نية بلاده دخول حرب جديدة ضد العرب، مهدداً بغزو (سورية)، التي ادّعى أنها تحضّر للعدوان على (إسرائيل)، وذلك في لهجة جديدة وغير

معهودة من اليهود المتظاهرين دائماً بالمسكنة والاستضعاف.

* وفي عام ١٩٦٧م لم ينقضِ شهر أبريل (نيسان) منه حتى كان اليهود قد نفّذوا ما توعّدوا به؛ فشن سلاحهم الجوي هجوماً ضخماً ضد (سورية)، وفي الشهر التالي هدد الهالك (إسحاق رابين) بدخول دمشق، بعد افتعال مشكلة وأزمة؛ بسبب تحويل مجرى نهر الأردن، وقيام أعمال فدائية ضد دولة اليهود من داخل (سورية).

* كان ذلك الهجوم الإسرائيلي ضد (سورية) رسالة موجهة أيضاً إلى (مصر)، المقصودة أصلاً بهذا العدوان، والتي كان قادتها منهمكين أو غارقين في المستنقع اليمني، حيث الحرب الظالمة التي أُقحم فيها الجيش المصري للقتال هناك نصرةً للقوى «التقدمية» ضد القوى «الرجعية» لصالح المعسكر الاشتراكي الشيوعي! وبدلاً من أن تتنبه تلك القيادة للخطر اليهودي الماثل، وتسعى لحشد مماثل ضد ذلك العدو الحقيقي المتربص من وراء الحدود؛ اكتفى الثوار بنشر قوات بغرض «الردع» و«التخويف» واستعراض القوة في سيناء!

* عدّ اليهود ذلك الاستعراض إعلان حرب من (مصر)، وأعلن (موشي دايان) وقتها أن (مصر) هي العدو الحقيقي وليست (سورية)، وأن على (إسرائيل) أن تتفرغ لحربها، وأصبح قرار الحرب في إسرائيل في حكم المنتهى منه، ولم يبقَ إلا انتظار الذريعة المناسبة.

* مرة أخرى قدّم النظام الثوري الذريعة إلى اليهود المتربصين في الوقت المناسب؛ حيث نفّذ عبد الناصر تهديده بمنع الملاحة في خليج العقبة، على الرغم

من أن الدولة اليهودية أوضحت من جانبها أن ذلك القرار سيُعدّ إعلان حرب في حال اتخاذه. وصدر القرار في ظرف حساس، وانتشرت القوات المصرية على خليج العقبة بعد انسحاب قوات الطوارئ الدولية منه، وزاد الاحتقان بعد أن أعلن توقيع ميثاق دفاع مشترك بين (مصر) و(الأردن)، على الرغم من الخلافات التي كانت قائمة بينهما، وأخبرت حكومةُ الأردن وحكومةُ العراق عبدَ الناصر بأن لديهما معلومات استخباراتية بأن (إسرائيل) ستبدأ الهجوم يوم ٥ يونيو.

* بالفعل شُكّلت في الكيان الصهيوني حكومة حرب، وأدخل فيها (موشي دايان) وزيراً للدفاع، لينفّذ وعده بالانتقام من (مصر)، وكانت القوات الإسرائيلية قد أتمت استعداداتها التي بدأتها منذ زمن لخوض الحرب الشاملة، في حين كانت القوات المصرية غير مستعدة حتى ليلة المعركة مساء الرابع من يونيو (حزيران) من العام نفسه!!

* وفي صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧م، قام اليهود بشن الحرب على مصر وأعيُنُهم على القدس، وأعلنوا أنهم في وضع دفاع عن النفس، بعد أن حشدت مصر قواتها في سيناء، وأغلقت خليج العقبة، وأحلت قواتها محل قوات الأمم المتحدة، وبدأ اليهود في توجيه ضربة جوية مفاجئة ضد القواعد الجوية العربية في كل من (مصر) و(سورية) و(الأردن) و(العراق)، وأطلق على هذه العملية (ضربة صهيون)! لتكون تلك التسمية تذكيراً لجنود اليهود بأن تلك الحرب لأجل (أرض صهيون)؛ وهو الاسم الذي يطلقه اليهود على مدينة القدس.

* انطلق الطيران اليهودي كله من مرابضه (١٥٠ طائرة) وتوجه نحو ١٩

قاعدة مصرية جوية موزعة في أنحاء مصر (الدلتا ـ سيناء ـ الصعيد) لتدكّها وهي على الأرض، وبعد خمس عشرة دقيقة من بدء الحرب كان الجنرال (مردخاي هود) قائد سلاح الجو الإسرائيلي في لقاء مع ممثلي الصحافة الإسرائيلية والعالمية؛ حيث زف إليهم «البشرى» بتلك المذبحة الجوية، وقال: لقد دمرنا الحصيلة الكبرى من طائرات العدو؛ منها (٣٠٩) طائرات من (مصر)، و(٦٠) طائرة من (سورية)، و(٢٩) طائرة من (الأردن)، و(١٢) طائرة من (العراق)، وطائرة واحدة من (لبنان)، في حين لم تخسر (إسرائيل) إلا (١٩) طائرة!!

* **يعود السبب في هذا الحدث المفجع في تاريخ الحروب الحديثة إلى عدد من الأخطاء الفادحة التي وقعت فيها القيادات العلمانية القومية العربية، التي لم تتعظ بعد عشرين عاماً من النكبة تحت راية تلك القومية، فدخلت تلك الحرب تحت الراية نفسها، مستبعدة بإصرار غريب إدخال الإسلام في المعركة ضد عدو الإسلام والمسلمين.**

ولاشك أن تلك الخطيئة المتكررة، أفرزت أخطاء أخرى فنية واستراتيجية؛ كان من أهمها:

■ إساءة تقدير قوة العدو، وإهدار الاستفادة بالقدرات الذاتية للأمة، وذلك في الوقت الذي أحسنت فيه تلك القيادات الظن بأعداء أمتنا من الملحدين الروس، حتى إن القيادة المصرية كانت قد قررت القبول بتلقي الضربة الأولى نزولاً على نصائح (السوفييت) الشيوعيين؛ حيث قدر الروس الخسائر المتوقعة في حال تلقي الضربة الأولى بما يتراوح بين ١٥ ـ ٢٠٪ من مجموع القوة الجوية العربية، وعدّت

القيادة السياسية هذه النسبة «ضئيلة»، وعدَّتها تضحية «مقبولة» في مقابل إظهار (إسرائيل) بمظهر البادئ بالعدوان أمام الرأي العام العالمي!

■ أما الحرب البرية الرئيسية بعد ذلك، التي دارت رحاها في سيناء؛ فيكفي أن نتصور ساحة قتال مكشوفة أمام طيران معادٍ يصول ويجول فيها، وينتقي الأهداف التي يشتهيها، دون أي عائق من جيش مأمور بالانسحاب والفرار لا بالمقاومة والصمود!!

■ وعلى الرغم من كل عوامل الفشل التي بدأت بها المعركة، إلا أن دفاعاً مستميتاً من جموع من الجنود، حاول في بعض الجبهات مقاومة الهزيمة ببسالة نادرة، كان مبعثها بقايا الغيرة والنخوة، لكن تلك الروح لم تجد من يستثمرها ويستمر بها، حتى إن القادة الإسرائيليين أنفسهم اعترفوا بحدوث موجة من الاضطراب سادت صفوفهم في المحور الشمالي بسبب تلك المقاومة العنيفة.

* أجمع عسكريون كثيرون على أن القيادة العسكرية المصرية لو كانت قد دبرت هجمة مضادة لإجهاض الهجوم الإسرائيلي في ذلك الوقت؛ لكان لذلك تأثير في تغيير مجرى المعركة، غير أنها أصيبت بالشلل المعنوي بسبب الضربة الجوية المفاجئة، فاكتفت بإصدار أوامر الانسحاب، ما تسبب في فقدان الجيش المصري لـ٨٠٪ من سلاحه، وفقد عشرة آلاف جندي، وألف وخمسمائة ضابط، ووقوع خمسة عشر ألف جندي ونحو خمسمائة ضابط أسرى في يد العدو. ولم تتوقف الحرب على الجبهة المصرية إلا بعد أن طلبت مصر وقف إطلاق النار على جبهتها، معلنةً بذلك التسليم بالهزيمة!!

* التفت اليهود بعد ذلك إلى الجبهة الأردنية، فاحتلوا الضفة الغربية، فطلبت الأردن وقف إطلاق النار مقرّة بالهزيمة، ثم اتجه اليهود إلى سورية، واحتلّوا مرتفعات الجولان، مع قاعدتها (مدينة القنيطرة)، ثم أُعلن وقف إطلاق النار، بعد أن سلّمت تلك المدينة دون قتال.

وبذلك انتهت الجولة العسكرية الثالثة، وأعلن الرئيس المصري (جمال عبد الناصر) أنه يتحمل مسؤولية الهزيمة، وأنه لذلك سوف يتخلى عن السلطة، ولكن الجماهير التي خدرتها الشعارات القومية الثورية، تقبلت الهزيمة والتضحية بالكرامة والأرض والدم والوطن؛ لكنها لم تقبل التفريط في الزعيم، ولو قادها إلى الجحيم!! فخرجت التظاهرات المليونية تطالب بعدم تنحي القائد الملهم أو استقالته، فاستجاب لاستكمال المسيرة... لكن على الوتيرة نفسها، مع فارق تحول الكبرياء القومي إلى انكسار وطني!!

وقد أسفرت تلك الحرب عن معطيات جديدة، أضافت مزيداً من التناقض والتعقيد فيما كان يسمى بـ«أزمة الشرق الأوسط»، منها:

■ نشأت عن تلك الهزيمة موجة من الانكسار العربي العام، والإحباط الفلسطيني الخاص، لكن ذلك تحوّل إلى ظهور نهج المقاومة «الوطنية» بين الفلسطينيين، بعد أن فقدوا الأمل في فاعلية القومية العربية، لكن هذا التحول أيضاً لم يكن بروح دينية مكافئة للروح التي يقاتل بها اليهود؛ لذلك نشأت عدة فصائل فلسطينية مقاومة، لكنها كانت تعكس روحاً علمانية، وكان على رأسها منظمة «التحرير» الفلسطينية، التي آل أمرها فيما بعد إلى نبذ المقاومة - بعد أن

سمتها (إرهاباً) ـ ولو كانت بتلك الروح الوطنية العلمانية!

■ أخـذت الأنظمة العربية التي هزمت جيوشها موقفاً جماعياً رافضاً للاستسلام العلني لليـهود في البداية، لكن ذلك الموقــف أيضاً لم يكن من منطـلقات إسـلامية، بل من منطـلقات قومية، وقـد تجسـد ذلك الموقـف في مقـررات مؤتمر القـمة العربي المنعـقـد في الخرطـوم عـام ١٩٦٨م، الذي اشتهر بمؤتمر (اللاءات الثـلاث): لا للاعتـراف بإسـرائيـل، لا للتفـاوض معـها، لا للصلح معها إلا بعد الانسحاب من الأراضي التي احتلتها في حرب النكسة، وغاب الحديث عن الأراضـي التي احتـلت في حرب النكـبة، وأصبح هَمُّ العرب هو استرجاع ما أضاعوه في حربهم الأخيرة عام (٦٧)، فيما يشبه الإقرار الضمني بالتنازل عما سُلِبوه في حربهم الأولى عام (٤٨).

■ اتجه المجتمع الـدولي بعد الحـرب إلى مزيد من تقنين إسباغ الشرعية على اغتصاب اليهود لأراضي فلسطين التي احتلت عام ١٩٤٨م، فلم تعدّها «الشرعية» الدولية أرضاً محتلة، بل عدّت فقط أن ما اغتصبه اليهود عام ١٩٦٧م هو من الأراضي المحتلة، وصدر بذلك القرار (٢٤٢) الذي يدعو (إسرائيل) إلى الانسحاب من الأراضـي التي احتلتها في حـرب (٦٧)، ومع ذلـك فقد رفض اليهود ذلك طوال الأعوام الأربعين الماضية، دون أن يكون لتلك الشـرعية الدولية أي دور في حملهم على تنفيذ قراراتها. وقد تمنَّع العرب عن قبول ذلك القرار عند صدوره، ولمـدة طـويلة تالية، لكنه أصبح بعد ذلك غاية ما يتمناه المفاوض العربي في مسـاومته لليهـود ضمن عمليات السلام.

* * *

الجولة الرابعة

حرب التحريك (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)

درجت أوساط كثيرة على وصف حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م بأنها حرب (التحريك) وليست حرب (التحرير) كما اشتهرت على الألسنة؛ وذلك لأنها جاءت من أجل تحريك الأوضاع بعد حالة (اللا سلم واللا حرب) التي امتدت لعدة أعوام قبل نشوبها.

ومن العجيب أن الرئيس المصري (حسني مبارك) الذي شارك بدور رئيسي في تلك الحرب قد وصفها علناً بأنها كانت (حرب تحريك) وليست حرب تحرير، فهل في الأمر من سرّ؟!

إن الأمور بعد هزيمة عام ١٩٦٧م، كانت تتجه نحو الحل الاستسلامي بدلاً من الحل الإسلامي، حتى إن (عبد الناصر) نفسه كان قد قبِل في آخر حياته بمبادرة أمريكية للسلام بين العرب وإسرائيل، وهي مبادرة (روجـرز)[1]، ولكن جو

(١) هي أول مبادرة أمريكية لـ «السلام» في الشرق الأوسط، اشتهرت باسم وزير الخارجية الأمريكي في عهد الرئيس الأسبق (ريتشارد نيكسون)، وقد تقدمت أمريكا بها بعد هزيمة العرب عام ١٩٦٧م، وكان مضمونها أن تنسحب (إسرائيل) من سـيناء المصرية بعد نزع =

الإحباط الذي عاشته الشعوب العربية بعد أن تبينت حجم تلك الكارثة، ومشاعر السخط على القيادات العربية التي تسببت فيها، بالإضافة إلى استمرار احتلال اليهود لما احتلوه في تلك الحرب في (مصر وسورية والأردن وفلسطين)؛ كل ذلك حال دون إمكانية الإقدام على توقيع معاهدات صلح مع اليهود وهم على تلك الحال من الاحتلال؛ بحيث تقرّهم الزعامات العربية من موقف ضعف على البقاء والعيش في أرض فلسطين وما حولها.

كان لا بد إذن من عمل شيء كبير، يكون نقطة انطلاق نحو إنهاء حالة الحرب مع اليهود ولو بصورة تدريجية؛ ولأن هذه الخطوة المطلوبة - أعني إنهاء الصراع العسكري مع اليهود - كانت كبيرة في حجمها، خطيرة في أبعادها، ومثيرة في تفاصيلها؛ فقد كان لا بد من تخفيف وقعها على الشعوب قدر المستطاع وعلى مراحل؛ ولهذا كان الإعداد لحرب (التحريك) التي وُضِعَ لها - فيما يبدو - سيناريو مسبق في ردهات السياسة الدولية وكواليسها.

وكان هذا الترتيب يقضي باستعادة الجيش المصري والنظام معه لهيبته باسترجاع جزء من شبه جزيرة سيناء التي أضاعها النظام الثوري نفسه في مرحلة سابقة، وفي

= سلاحها، مقابل قبول مصر بسلام دائم مع دولة اليهود. وبينما قبل عبد الناصر هذه المبادرة في أثناء زيارة له إلى روسيا في شهر يوليو ١٩٧٠م، رفضتها (إسرائيل)، وعلل عبد الناصر قبوله لمبادرة (روجرز) بأن ذلك سيحرج إسرائيل أمام الرأي العام العالمي، ويظهرها غير راغبة في السلام! وقد اعترضت بعض القوى الفلسطينية على تلك الموافقة، واتهموا عبد الناصر بالخيانة، فكان رده إيقاف إذاعة صوت فلسطين التي كانت تبث من القاهرة، وكان من المفترض أن يكمل عبد الناصر السير باتجاه عقد اتفاقية سلام مع اليهود وفقاً لتلك المبادرة، ولكن الأجل عاجله.

الوقت ذاته يحفظ لقادة اليهود ماء وجوههم أمام شعبهم عندما يفرّغ ذلك النصر من محتواه من الناحية العسكرية ثم من الناحية السياسية[1].

وقد تم الأمر على هذا النحو تقريباً، وذلك على التفصيل التالي:

* في يوم السادس من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣م الموافق للعاشر من رمضان ١٣٩٣هـ، اجتازت القوات المصرية قناة السويس، شرق سيناء، وانتقلت إلى الضفة الشرقية، واقتحمت خط (بارليف) الحصين؛ لتأخذ مواقع دفاعية بعد عشرة كيلو مترات من شاطئ القناة في داخل سيناء، ولم تُعطَ للقوات المسلحة بعد ذلك أية صلاحية من القيادة العليا لتتابع تقدمها في سيناء لإكمال تحريرها مع وجود الإمكانية لذلك، حتى إن رئيس الأركان نفسه في الجيش المصري (سعد الدين الشاذلي) قد اختلف مع القيادة السياسية واتهمها بالتواطؤ، وعاش سنوات طويلة في منفاه الاختياري خارج البلاد.

* بعد عشرة أيام من بدء الحرب وإحراز تلك الانتصارات فيها لصالح العرب؛ عبرت عدة دبابات يهودية قناة السويس من منطقة (الدفرسوار)، وفتحت ثغرة في صفوف القوات المصرية، ثم تتابع تقدم الدبابات اليهودية، وانتشرت على طول القناة من ضفتها الغربية، وحاصرت مدن القناة، وحجزت القوات المصرية في سيناء، وبهذا انقطعت وسائل الاتصال بين قطاعات الجيش المصري، وبدت (إسرائيل) أمام مواطنيها ومؤيديها في الداخل والخارج منتصرة، حيث تمكنت من أسر القوات المصرية كلها في سيناء والالتفاف عليها؛ بينما كانت الدعاية المصرية

---

(١) اشتُهر على نطاق واسع أن وزير الخارجية الأمريكي الأسبق (هنري كيسنجر) هو الذي أوحى إلى السادات بمضمون فكرة (حرب التحريك)!

والعربية تصور العبور على أنه انتهى إلى أعظم الانتصارات، وتوقفت الحرب عند ذلك الحد بإعلان وقف إطلاق النار، في وضع لا يسمح للمصريين بادعاء النصر الشامل، ولا يمنع اليهود من ادعاء الثأر الكامل.

* وعُـدّت هذه الحرب، هي المعركة الوحيدة التي أعدّ لها العرب قبل نشوبها، والوحيدة التي بدأها العرب من طرفهم، والوحيدة أيضاً التي رفعت فيها بشكل جزئي الشعارات ـ وليس الرايات ـ الإسلامية؛ لذلك كان حظها أفضل من سابقاتها، فقد تلقّى اليهود فيها ضربات قاسية من الجيشين المصري والسوري، واخترق المصريون خط (بارليف) الحصين، وتقدموا بعده نحو ٢٠ كم شرق القناة وداخل سيناء، وتقدم الجيش السوري حتى مدينة القنيطرة نحو أرض الجولان السورية، لكنه لم يكمل مهمته، متهماً القيادة المصرية بإفشال مسعاه لتحرير الجولان!!

* بعد انتهاء الحرب مباشرة، بدأ تدشين العملية السلمية بين مصر وإسرائيل في مراحلها المبكرة، إيذاناً بخروج مصر نهائيّاً من الحرب لتحرير ما ضاع من أراضٍ فلسطينية وعربية أخرى في الحروب السابقة، اكتفاءً بالرجوع الصوري للأراضي المصرية في سيناء، وقد جاءت الخطوة الأولى بزيارة قام بها وزير الخارجية الأمريكي «اليهودي» (هنري كيسنجر) لمصر؛ حيث اتفق مع القيادة على فض الاشتباك بين المصريين والإسرائيليين والاتجاه نحو حل النزاع في الشرق الأوسط بالطرق السلمية.

وقد أسفرت تلك الحرب عن نتائج على الجانبين العربي والإسرائيلي، كان أبرزها:

▪ اهتزاز صورة الجيش الإسرائيلي الذي «لا يقهر»، وهو ما أوجد بعثاً نسبيّاً في الروح الدينية لدى المصريين والعرب، ولا سيما أن «التكبير» كان الشعار الأبرز في هتافات الجنود في أثناء تلك المعركة التي اختير توقيتها في شهر رمضان المعظم، بعد مدة من الإعداد المعنوي الديني للمقاتلين.

▪ لم يتواصل هذا التوجه السليم في استثمار النصر الجزئي لأجل الوصول إلى الانتصار الكلي، بل سارت القيادة في مسار إجهاض الانتصار من خلال تخليها عن نهج المواجهة العسكرية بالمرة، والتعهد بالتخلي عنها؛ سواء أكانت تحت رايات إسلامية أم حتى علمانية قومية أم وطنية!! وهو ما تُرجم بعد ذلك في اتفاقية السلام المبرمة بين دولة اليهود وبين الحكومة المصرية في عام ١٩٧٨م، أي بعد نحو عشر سنوات من حرب النكسة.

▪ كانت استعادة مصر لأرض سيناء استعادة منقوصة، على الرغم من الثمن الباهظ لرجوعها، المتمثل في الاشتراط على مصر أن تتخلى عن مسؤولية استرجاع بقية الأراضي العربية المغتصبة إلا عن طريق التفاوض «السلمي»، وقد احتفظ اليهود بعد انسحابهم من سيناء بثلثيْ قواتهم على حدودها، مع تعهد مصر رسميّاً من خلال معاهدة السلام بإخلاء سيناء من أي سلاح ذي أثر، بل من أي إعمار حقيقي يمكن أن تمارسه حكومة على أرضٍ لها السيادة عليها.

▪ حدثت بوادر انشقاق خطير في صفوف النظام العربي؛ بسبب تداعيات تلك الحرب، وذلك بعد انتهائها بأربع سنوات، عندما أقدم الرئيس المصري السابق (أنور السادات) على ما سماه (معركة السلام)، عازماً على المضي في طريق ذلك «السلام» مع اليهود إلى نهايته، ولو كان بانفراد مصر عن بقية العرب، بل والفلسطينيين.

وهنا أمر تنبغي الإشارة إليه، وهو أننا لا نشكك في إمكانية تحقيق النصر على اليهود، ولا في إخلاص الجنود الذين قاتلوا وقتلوا، بل لا نقلل من أهمية دور التعبئة المادية والمعنوية للمعركة هذه المرة، ولكننا نعبر فقط عن قناعة بأن هذا النصر الجزئي كان حجة أقامها الله على العرب والمسلمين في إمكان نصرهم ولو كانوا أذلة، وأنه كان يمكن أن يكون نقطة انطلاق نحو نهضة عربية ووحدة إسلامية شاملة، لكن المعاندين أصروا أن يجعلوا منه نقطة انطلاق أيضاً، ولكن إلى نكبة عربية وفرقة إسلامية شاملة.

* * *

الجولة الخامسة

حرب لبنان الأولى (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م)

أعطت حرب أكتوبر ٧٣ الفلسطينيين إشارة، بأن عليهم أن يتحملوا بأنفسهم مسؤولية قضيتهم «الوطنية»، بعد أن انفض سامر الدعايات «القومية»، وقد بدؤوا في تحمل مسؤولياتهم، وكان من ذلك محاولة تقوية وجودهم في جنوب لبنان، المتاخم لشمال الدولة العبرية الصهيونية المغتصِبة، وقد كان تجمع المقاتلين الفلسطينيين في جنوب لبنان أمراً مقلقاً للجانب الإسرائيلي منذ وقف إطلاق النار الذي أبرم بين الدولة العبرية ومنظمة التحرير الفلسطيني في شهر يوليو (تموز) عام ١٩٨١م؛ حيث كانت المنظمة ترد على اعتداءات اليهود بقصف شمال دولتهم العبرية بالصواريخ، وقد استغل اليهود تلك العمليات، إضافة إلى قيام منظمة (أبو نضال) الفلسطينية المناهضة لياسر عرفات بمحاولة اغتيال سفير (إسرائيل) في بريطانيا، كي تشن حرباً على منظمة التحرير في لبنان، تحت غطاء حماية أمريكية.

ولما أعطى الأمريكيون اليهود الضوء الأخضر لشن تلك الحرب، أكد الإسرائيليون لهم أنهم لن يتجاوزوا ٣٠ كم لتحقيق أغراضهم الأمنية؛ لتأديب المنظمة وسورية التي تقف معهم، وإعطاء الجهة الدولية التي تقف وراءهم ظاهراً درساً، وهي قوة الاتحاد السوفيتي السابق. وقد أعطت محاولة الاغتيال التي قامت بها مجموعة أبي نضال ضد السفير الإسرائيلي في بريطانيا، الذريعةَ التي كان الأمريكيون قد طالبوا بها على لسان وزير خارجيتهم (ألسكندر هيج) الذي قال لشارون قبل بدء الحرب: «نحن في حاجة إلى عملية استفزازية واضحة، يعترف بها العالم»!

وبدأت تلك الحرب تحت دعوى إبعاد منظمة التحرير وما معها من صواريخ (الكاتيوشا) إلى مسافة ٤٠ كم عن حدود (إسرائيل)، ثم عدَّل الإسرائيليون ذلك- على لسان الناطق الرسمي للحكومة الإسرائيلية- إلى أربعة أهداف واضحة، وهي: إجلاء كل القوات (الأجنبية) من لبنان (ويقصد القوات السورية والفلسطينية) ثم: تدمير القيادة الوطنية الفلسطينية وما معها من قدرات، ثم تمكين القوات اللبنانية من السيطرة على أراضي لبنان بعد «تنصيب» قيادة قادرة على ذلك، وأخيراً توظيف كل ذلك للوصول إلى إبرام معاهدة سلام مع لبنان، يضمن أمن شمال (إسرائيل) من هجمات الفلسطينيين؛ لأجل ذلك تقرر خوض الحرب.

وفي صباح ٦ يونيو ١٩٨٢، اقتربت ١٣ دبابة (ميركافا) إسرائيلية لاختراق عوائق الطريق إلى داخل لبنان، ثم تلتها مائة دبابة أخرى، تقدمت على عدة محاور تجاه بيروت عاصمة لبنان، وقد تصدى لها الفلسطينيون اللاجئون المقاتلون في جنوب لبنان، إلا أنهم لم يستطيعوا إيقافها بفاعلية؛ لأن فاعلية المقاومة الفلسطينية كانت قد ضربت قبل ذلك في الحرب الأهلية في لبنان منذ عام ١٩٧٥م.

ونصَّب اليهود (سعد حداد) قائداً لجيشٍ لبناني عميل في الأراضي التي احتلوها من جنوب لبنان وأخرجوا منها المقاومة. أما الجيش السوري فقد أبدى مفاجأته بهذا الهجوم من الدولة المعادية (إسرائيل)! وكأنه كان واجباً على القيادة الإسرائيلية أن تخبر القيادة السورية بنيتها غزو لبنان عن طريق (بيروت-دمشق)!! لكن الجيش السوري «تدارَك الموقف»، فبدأ بالتدخل بعد خمسة أيام من الاجتياح، غير أن القوات الإسرائيلية كانت قد بسطت سيطرتها على ثلث أراضي لبنان، ووصلت إلى مشارف بيروت بعد ثلاثة أيام من بدء الحرب، وبعد أن دمر سلاح الجو الإسرائيلي عدداً من المواقع الدفاعية السورية، وأسقط ٢٢ مقاتلة ميج سورية، واضطر الجيش السوري إلى الانسحاب من المعركة في ١٤ يونيو ١٩٨٢، بعد أن دخلت القوات الإسرائيلية ضاحية شرق بيروت ذات الأغلبية النصرانية، وطوقت القسم الغربي الذي كان معقلاً رئيساً للمقاتلين الفلسطينيين.

ومع اقتراب نهاية شهر يونيو، كان هناك نحو مائة ألف جندي إسرائيلي في جنوب لبنان في مواجهة عشرة آلاف مقاتل فلسطيني و٤٠ ألف جندي سوري، وقد حوصر المقاتلون الفلسطينيون مع قائدهم ياسر عرفات في غرب بيروت، وقطعت عنهم إمدادات الماء والغذاء والدواء، واستمر قصف بيروت الغربية طوال شهر يوليو من عام ١٩٨٢، واشترط اليهود لوقف القصف وفك الحصار، أن يخرج المقاتلون الفلسطينيون من بيروت.

وقد أسفر الحصار والقصف العنيف عن مقتل نحو ٣٠ ألف مدني لبناني، وإصابة أكثر من ٤٠ ألفاً، وتهجير نحو نصف مليون شخص، وحمّلت (إسرائيل) منظمة التحرير المسؤولية عن تلك الخسائر، ودافع الرئيس الأمريكي

الأسبق (رونالد ريجان) وكذا وزير خارجيته اليهودي (هنري كسينجر) عن موقف (إسرائيل) وقالا: إنها كانت في حالة دفاع عن النفس!

وعلى الرغم من قرب التوقيع على اتفاق لوقف إطلاق النار، فقد شن اليهود أعنف قصف جوي ومدفعي وبحري منذ بدأت الحرب استباقاً لتوقيع الاتفاق. وبعد أن حقق اليهود مآربهم من سفك الدماء الفلسطينية، واستخراج موافقة على انسحاب الفلسطينيين من بيروت؛ اتفق الطرفان على وقف إطلاق النار في ١٨ أغسطس بوساطة أمريكية، وبدأ تخفيف الحصار بعد إبرام ذلك الاتفاق.

وقد صاحب هذه الحرب ونتج عنها عدد من الظواهر والتفاعلات التي كان لها ما بعدها، ومن ذلك:

❁ جاء اتفاق وقف إطلاق النار بضغط من الأمريكيين، تخوفاً من اتساع نطاق الحرب باستدراج الإسرائيليين لسورية، وهو ما كان يمكن أن يورط روسيا أيضاً في شكل من أشكال التدخل دفاعاً عن مصالحها في المنطقة، وقد أظهر ذلك الدولةَ العبرية بأنها لا تكترث بأية مخاطر ما دامت لا تهددها، ولا تحرص على أي مصالح إلا إذا كانت مصالحها، وهو ما تسبب في نشوب أزمة داخل الإدارة الأمريكية نفسها، حيث حدث خلاف بين الرئيس الأمريكي الأسبق (رونالد ريجان) ووزير خارجيته (ألكسندر هيج) الذي ظهر تواطؤه مع الإسرائيليين ضد مصالح بلاده، وانتهت الأزمة باستقالة هيج.

❁ كان السفاح الدموي اليهودي (أرئيل شارون) وزيراً لدفاع الجيش الإسرائيلي في تلك الحرب، وقد كان معارضاً لإنهائها إلا بعد حل القضية برمتها

من خلال جنازير الدبابات كما قال، وقد حمل شارون الجيش الإسرائيلي بأكمله للدخول في تلك الحرب التي لم يتدخل فيها أي جيش عربي، ولا حتى الجيش اللبناني نفسه، حيث لم يتدخل هذا «الجيش» نهائياً في تلك الحرب، وأعلن بقاءه على «الحياد»!

❁ لم تتدخل القوات السورية إلا بعد أن قصف السلاح الجوي الإسرائيلي مواقع عسكرية كانت قد نصبتها سورية على أرض لبنان، فقامت نحو ٢٠٠ طائرة سورية بعملية جوية تصدت لها فيها نحو ٢٠٠ طائرة إسرائيلية، لكن المعركة أسفرت عن إسقاط نحو ٤٠ طائرة سورية في يوم واحد!! وأصبحت السيطرة الجوية على المعركة بأيدي الإسرائيليين، وبعدها قامت سورية بتوقيع هدنة مع اليهود في ١١ يونيو، معلنة توقفها عن المشاركة في المعركة.

❁ كانت القوات الفلسطينية مسلحة تسليحاً خفيفاً، على الرغم من كل وعود القمم العربية وقراراتها بتمكين الفلسطينيين من الدفاع عن قضيتهم، ولذلك لم يكن أمامهم لقتال ذلك الجيش الزاحف لاستئصالهم إلا أن يخوضوا ضده حرب عصابات، بل أصيب عرفات بالإحباط المبكر عندما علم أن القوات الإسرائيلية سُمح لها بعبور مدينة (صُور) بسرعة دون أي ممانعة، بل تبين بعد ذلك أن اليهود حشدوا لحرب المقاتلين الفلسطينيين في لبنان الصغير، ضعف عدد القوات التي واجهوا بها مصر وسورية في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م!

على الرغم من أن الحرب سبقتها إرهاصات واضحة، بل تحذيرات صريحة من العدوان، إلا أن الجميع أبدى استغراباً من أن الحرب جاءت (فجأة) وفي وقت

لم يكن هناك أي استعداد لها!!

* شكلت بعض الفصائل الفلسطينية بالاشتراك مع طائفة (الدروز)[1] وبعض الطوائف اللبنانية ما أطلق عليه (القيادة المشتركة للقوات الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية)، إلا أن هذه القيادة المشتركة لم تقدم أي إنجاز، مما أدى إلى تفككها، حيث انسحب منها زعيم الدروز (وليد جنبلاط) بعد تسعة أيام من تشكيلها، واصفاً إياها بـ(هيئة دفن الموتى).

* تسلَّم (بشير الجُمَيِّل) رئاسة لبنان بعد الحرب، وقد عدّته الكتلة المسلمة في البرلمان اللبناني حليفاً للكيان الصهيوني، ولهذا امتنعت عن انتخابه للرئاسة. وبعد أن فاز بها، وقبل تسعة أيام من تسلم مهام منصبه؛ اغتيل في ١٤ سبتمبر ١٩٨٢م بقنبلة موقوتة، وبعدها بأسبوع انتُخب شقيقه (أمين الجُمَيِّل) رئيساً، فحاول التقرب من الطوائف المسلمة في لبنان.

(١) الدروز: فرقة باطنية تؤلِّهُ الخليفة الرافضي، الشاذّ في فكره وسلوكه: (الحاكم بأمر الله الفاطمي)، وأكثر عقائدها مأخوذة من الطائفة الإسماعيلية، وتنسب إلى (نشتكين الدرزي). وقد نشأت طائفة الدروز في مصر، ثم انتقلت إلى الشام. وعقائد الدروز لا يعلِّمونها أبناءهم إلا بعد سن الأربعين. ومع إيمانهم بألوهية الحاكم بأمر الله؛ فإنهم يؤمنون برجعته بعد غيبته، وهم ينكرون جميع الأنبياء ويعدونهم شياطين، ويبغضون كل أصحاب الأديان، وبخاصة المسلمين، ويعتقدون أن ديانتهم نسخت كل الأديان والشرائع، يؤمنون بتناسخ الأرواح، وينكرون وجود الجنة والنار، لهم كتاب «مقدس» خاص بهم يسمونه (المنفرد)، وفيه أن إلههم الحاكم ستكون القيامة عند عودته، لكن بعد أن يهدم الكعبة ويسحق المسلمين والمسيحيين! ولا تزال هذه الطائفة المنحرفة لها وجود سياسي محترم ومعترف به في لبنان، وزعيمهم هو (وليد جنبلاط) السياسي اللبناني الشهير!

* بموجب اتفاق فك الحصار، قدم الرئيس الأمريكي الأسبق (رونالد ريجان) ضماناً شخصيّاً للفلسطينيين بالحفاظ على أمن عائلاتهم، إذا ما غادروا بيروت إلى تونس، وخرج المقاتلون تحت «حماية» دولية، مكونة من ٨٠٠ من جنود المارينز الأمريكيين، و٨٠٠ جندي فرنسي، و٤٠٠ جندي إيطالي، وعلى الرغم من تلك الحماية فقد تواصل الغدر الإسرائيلي بالقوات المغادرة، فاستمر القصف والقتل، حتى أسفرت تلك الحرب عن مقتل ٢٧ ألف لبناني وفلسطيني، في مقابل نحو ١٢٠٠ جندي إسرائيلي، وأخرِجَ المتبقون من المقاتلين الفلسطينيين من لبنان في أوائل الثمانينيات بعد أن كانوا قد أُخرِجوا من الأردن في أوائل السبعينيات.

* على الرغم من تعهد الرئيس الأمريكي (رونالد ريجان) بحماية اللاجئين الفلسطينيين في لبنان - بعد تعهده بحماية مقاتليهم في أثناء الخروج من لبنان - فقد قامت القوات الصهيونية في مساء ١٦ سبتمبر ١٩٨٢ بمحاصرة مخيمات الفلسطينيين في (صبرا) و(شاتيلا) في لبنان، وسمحت لحوالي ٣٥٠ من نصارى لبنان المسلحين بدخول مخيمات الفلسطينيين العُزَّل بأسلحتهم، بدعوى البحث عن بقايا مقاتلين فلسطينيين، ووقعت مذبحة في هذين المخيمين، نتج عنها مقتل نحو ثلاثة آلاف فلسطيني أعزل، وقد شاركت في المذبحة فتيات لبنانيات نصرانيات، جئن «للترفيه» عن الجنود الإسرائيليين!

* تفرقت القوات الفلسطينية - تحت إشراف «الشرعية» الدولية - إلى ثماني دول، بواقع (٩٧٠) مقاتلاً إلى تونس، و(٢٦١) مقاتلاً إلى الأردن، و(١٣٦) إلى العراق، و(١٠٣٩) إلى اليمن الجنوبي، و(٨٤١) إلى اليمن الشمالي، و(٤٤٨) إلى السودان، و(٥٨٨) إلى الجزائر، و(٣٩٠٠) إلى سورية، وبموجب معاهدة

كامب ديفيد المبرمة بين الدولة المصرية والحكومة الإسرائيلية؛ لم «تستضف» مصر أي مقاتل فلسطيني؛ لأن المشاركة في القتال صارت محرمة، ولو بإيواء (مقاتلين) سابقين!

* على الرغم من تلك النتائج الكارثية لحرب لبنان عام ٨٢؛ فقد قدم مؤتمر القمة العربي المنعقد بعدها في ٦ سبتمبر ١٩٨٢، أول اعتراف عربي جماعي بوجود دولة (إسرائيل)، وذلك في مؤتمر «فاس» الذي عقد بالمغرب، من دون مشاركة مصر، التي كانت لا تزال معزولة بعد تورطها في «الصلح المنفرد»!

* أصبحت لبنان كلها تقريباً، أو (٩٨٪) منها، واقعة بعد الحرب تحت سيطرة قوات أجنبية متعددة الجنسيات!! إضافة إلى ميليشيات من جميع الطوائف اللبنانية، ولم تكن للحكومة اللبنانية سيطرة إلا على بيروت وضواحيها، فجنوب لبنان كان بـ نحو ٣٠ ألف جندي إسرائيلي، وشمال لبنان كان تحت سيطرة ٤٠ ألف جندي سوري، وعشرة آلاف مقاتل فلسطيني، وكان لقوات الأمم المتحدة نحو عشرة آلاف جندي في أنحاء متفرقة من لبنان، من ضمنهم عدد كبير من قوات المارينز الأمريكية.

* لظهور الدور الإجرامي للولايات المتحدة في حرب لبنان ١٩٨٢، فقد استُهدف الوجود الأمريكي هناك، ففجِّرت السفارة الأمريكية بلبنان في ١٨ أبريل ١٩٨٣، ما أدى إلى قتل ٦٠ شخصاً بالسفارة، من ضمنهم ١٧ أمريكياً، إضافة إلى جرح مائة شخص، وتبنت حركة (الجهاد الإسلامي) الشيعية مسؤوليتها عن العملية، ثم اقتُحِم حاجز عسكري كبير مشترك بين القوات الأمريكية والفرنسية

في ٢٣ أكتوبر ١٩٨٣ ، أدى إلى مصرع ٥٨ جنديّاً فرنسيّاً، و٢٤١ من جنود المارينز الأمريكيين، ودشّنت هذه العمليات بداية الوجود العسكري الشيعي على الساحة اللبنانية، وبخاصة في الجنوب، حيث بُدل الوجود (السني) إلى وجود (شيعي)، وبدا أن هناك لاعباً جديداً قد دخل تلك الساحة، وهو اللاعب الإيراني، الذي أراد عن طريق وكلائه في لبنان، حجز قطعة من الكعكة اللبنانية، لا؛ بل من القصعة العربية!



الجولة السادسة

حرب لبنان الثانية (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م)

أطلق اللبنانيون عليها حرب تموز، وسماها الإسرائيليون حرب لبنان الثانية (بعد حرب لبنان الأولى ١٩٨٢). وقد بدأت تلك الحرب في السادس من شهر يوليو عام ٢٠٠٦، بين دولة اليهود وحليفتها أمريكا من جهة، وبين ما يسمى (حزب الله)[١] وحليفته إيران من جهة أخرى.

وقد أطلقت بعض الأوساط الإعلامية العربية على تلك الحرب وصف

---

(١) وصف (حزب الله) ليس من المشروع إطلاقه على فئة «محددة» من المسلمين وتخصيصهم به، حتى ولو كانوا صادقين، فكيف لو كانوا مبتدعين بدعاً غليظة؟! لأن ذلك الاسم وصف قرآني عام لأهل الإيمان الصادقين في إيمانهم، والذين حددت الآيات ما يشترط فيهم من صفات، لا يمكن أن يطلق من دونها وصف (حزب الله) على قوم يفتقدونها، والآية القرآنية صريحة في ذلك، في قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥ - ٦٥]، فيشترط في أي حزب لأن يكون من ضمن (حزب الله) أن يتولى الله ورسوله ﷺ والذين آمنوا. ولا نعتقد أن أحداً أولى بوصف (الذين آمنوا) من أصحاب النبي ﷺ، الذين لا يتولاهم (حزب الشيعة)، بل يتبرأ منهم ويلعنهم إلا بضعة عشر صحابيّاً منهم، كما يتبرأ من كل من أحبهم واتّبع سبيلهم من أجيال الأمة بعدهم، كما هو معلوم لكل عارف بحقائق الأمور، لكننا قد نستعمله (باعتبار الدعوى)؛ كدعوى اليهود نسبتهم إلى نبي الله يعقوب، فيسمون دولتهم على اسمه (إسرائيل)! فنضطر أحياناً لإطلاق ذلك عليهم باعتبار دعواهم! وقريب من ذلك وصف (الشيعة) لأنفسهم بأنهم شيعة أهل البيت، مع أن أهل البيت براء من عقائدهم الضالة.

(الحرب السادسة)، إشارة إلى أنها تمثّل الجولة السادسة في الصراع العربي الإسرائيلي، وهذا في رأيي وصف غير دقيق، لعدة اعتبارات:

أولها: أن البُعد العربي الرسمي في تلك الحرب كان غائباً، بل كان البُعد الفارسي أقرب إلى الحضور فيها من الحضور العربي.

وثانيها: أن حقيقة تلك الحرب كانت أقرب إلى أن تكون حرباً بالوكالة بين طرفين متعاركين خارج ساحة ما كان يسمى بالصراع العربي الإسرائيلي، وهما: الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت تنوب عنها دولة اليهود، وإيران التي كان يحارب بالنيابة عنها حزب الشيعة في لبنان، وذلك في أجواء تخص قضية الصراع الأمريكي الإيراني، أكثر مما تخدم قضية الصراع العربي الإسرائيلي.

أما الأمر الثالث الذي يجعل تلك الحرب غير جديرة بوصف (الحرب السادسة)؛ فهو أن ذلك الوصف بذلك التحديد، هو أليق بحرب الخليج الثانية ضد العراق عام ١٩٩١ منه بتلك الحرب التي دارت عام ٢٠٠٦؛ وذلك لأن الحرب ضد العراق كانت بأجندة يهودية، ولمصلحة إسرائيلية، وإن كانت بأدوات أمريكية، وكل مقدمات تلك الحرب ونتائجها تثبت ذلك، فحرب الخليج الثانية كانت حلقة من سلسلة الحروب على طريق الوصول إلى مشروع (إسرائيل الكبرى) من النيل إلى الفرات، وعلى هذا كانت لدي قناعة - وما زالت - بأن حرب الخليج الثالثة ضد العراق أيضاً عام ٢٠٠٣، تستحق أن توصف بأنها الجولة السابعة في الصراع العربي الإسرائيلي، على الرغم من أن ذلك الوصف - أعني الصراع العربي الإسرائيلي - قد توقف العرب عن استعماله من طرفهم لفظيّاً، مع انهماك اليهود

في تفاصيله عمليّاً، وقد سجّلت قناعتي تلك في كتابي الصادر قبل حرب الخليج الثالثة بثلاثة أعوام، والذي كان بعنوان (حمى سنة ٢٠٠٠)، والذي بدأتُ أول فصوله بعنوان (إسرائيل الكبرى والحرب السابعة).

وبما أن حرب لبنان الثانية، أو (حرب تموز) عام ٢٠٠٦ كانت حرباً إيرانية أمريكية بأدوات لبنانية وإسرائيلية؛ فيمكننا أن نقول: إن غياب البعد العربي عنها قد جعلها خارجة عن إطار الصراع العربي الإسرائيلي، ولكننا لا نستطيع في الوقت ذاته أن نتجاهل أنها دارت على أرض عربية وتلاقت فيها القوات العسكرية الإسرائيلية مع مقاتلين من بلدة عربية هي لبنان. وبهذا الاعتبار (الصوري) أدرجت هذه الحرب هنا ضمن جولات الصراع العربي الإسرائيلي، حتى لا أبعد كثيراً بوجهات نظري الخاصة عن السياق العام الذي لا يتناقض على كل حال مع الغرض من هذا الكتاب.

لكن هناك أمراً ذا بالٍ، تنبغي الإشارة إليه عند الحديث عن تلك الحرب وتداعياتها الواقعة والمتوقعة؛ وهو حقيقة الموقف الإيراني من قضية الصراع العربي الإسرائيلي، لكون ما يسمى بـ(حزب الله) الذراعَ العسكري لإيران في لبنان، فبما أن (حرب تموز) كانت حرباً بالوكالة بين إيران وأمريكا لتحقيق مصالح إيران في لبنان، ومن ثم أرض فلسطين التي جعلت للبنان خصوصية أكبر من حجمه وأهميته؛ فمن المهم أن نسترجع أهم ما يميز النظرة الإيرانية للقضية الفلسطينية، وذلك في النواحي الاعتقادية وما يتفرع عنها من نواحٍ سياسية وعسكرية وإستراتيجية وإعلامية، وربما اقتصادية.

فإيران منذ اندلعت ثورتها الشعبية ذات الوجهة الدعائية «التبشيرية»

التصديرية، كانت تحتاج منذ أيامها الأولى إلى تبني قضية سياسية إسلامية كبرى، تستطيع من خلالها أن تستقطب تعاطف العامة في العالم الإسلامي، ولم يكن أمامها ما تتبناه من القضايا أنسب من قضية فلسطين ولا أكبر منها ولا أهم منها، ولهذا رفع زعماء الثورة الإيرانية عند تفجيرها شعار (الآن إيران وغداً فلسطين)، وهو الشعار نفسه الذي رفعه الشيعة في لبنان: (اليوم لبنان وغداً فلسطين)، فهل لفلسطين حقّاً ذلك التقدير والتقديس العظيم عند الشيعة؟!

إن الأرض المباركة في فلسطين لم تقدس إلا لوجود المسجد الأقصى فيها، فلأجله قُدِّست القدس وبوركت فلسطين، لكن ذلك المسجد العظيم الذي تواترت الأحاديث في فضل الصلاة فيه وشد الرحال إليه، مع المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ؛ ذلك المسجد لا يرقى عند الشيعة إلى درجة مسجد شيعي مغمور به قبور، لا يعرف به عموم المسلمين في العالم، وهو: مسجد الكوفة.

فمسجد الكوفة هذا هو عند الشيعة أقدس من المسجد الأقصى، بل أقدس من فلسطين، وقد دلت على ذلك مصادرهم المعتبرة عندهم في القديم والحديث؛ ففي كتاب «بحار الأنوار» للمجلسي (٢٢/ ٩٠) عن رجل عن أبي عبد الله قال: «سألته عن المساجد التي لها الفضل، فقال: المسجد الحرام، ومسجد رسول الله ﷺ. قلت: والمسجد الأقصى جُعلت فداك؟ قال: ذاك في السماء، إليه أسري رسول الله ﷺ، فقلت: إن الناس يقولون: إنه بيت المقدس، فقال: مسجد الكوفة أفضل منه»!

وروى الكليني في كتابه (الكافي) بإسناده عن خالد القلانسي أنه قال: سمعت

أن عبد الله الصادق ـ عليه السلام ـ كان يقول: صلاة في مسجد الكوفة بألف صلاة (الوسائل [جـ٣/ ص٥٤٧])، وجاء في كتاب الخصال للصدوق (ص١٣٧) أثر ينسبونه إلى أئمتهم «المعصومين»: «لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الكوفة»، وهم ينسبون إلى النبي ﷺ أن جبريل قال له، لمّا أُسري به إلى السماء: «أتدري أين أنت يا محمد؟ أنت الساعة أمام مسجد كوفان. قال له: فاستأذن لي أن أصلي فيه ركعتين، فنزل فصلى به».

وينسبون إلى علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال عن مسجد الكوفة: «النافلة في هذا المسجد تعدل عمرة مع النبي ﷺ، والفريضة تعدل حجة مع النبي ﷺ، وأنه قد صلى فيه ألف نبي ووصي»! فماذا بقي بعد ذلك من فضل للمسجد الأقصى، بل المسجد الحرام ومسجد المدينة، أي فضل لتلك المساجد بعد مسجدٍ الصلاةُ الواحدة فيه تعدل حجة أو عمرة مع النبي ﷺ؟!

هذا عن مقدار قداسة فلسطين، وقداسة مسجدها عند الشيعة، فماذا عن الفلسطينيين أنفسهم؟!

إن عموم الشعب الفلسطيني ـ كما هو معلوم ـ من أهل السنة، وهم يتميزون بذلك من الشعوب حولهم الذين شاع فيهم التشيع بأنواعه المتفاوتة في الانحراف، وأهل السنة ـ كما هو معلوم من أدبيات الشيعة وعقائدهم ـ هم أعدى أعداء أهل البيت، ولهذا يعدهم الشيعة جميعاً (نواصب)؛ لأنهم ناصبوا أهل البيت العداء، ولذلك فهم أولى بالعداء من كل عدو، والفلسطينيون لم يكونوا استثناء من أهل السنة لدى الشيعة ولن يكونوا، ولذلك فلا بد أن هناك أسباباً أخرى للاهتمام المعلن والمبالغ فيه من الشيعة بفلسطين والفلسطينيين.

وقد عبّر عن ذلك بلسان فصيح الأمينُ العام لحزب الله الإيراني (محمد باقر خرازي) عندما قال في حديث لصحيفة (عصر إيران) في (٢/ ٣/ ٢٠٠٨): «ما الفائدة التي جنيناها أو سوف نجنيها من دعم الحركات الفلسطينية؟ فإذا أردنا دعم الفلسطينيين، يجب أن نكون متيقنين أن فلسطين ستكون سائرة على مذهب أهل البيت ـ يقصد التشيع بالطبع ـ وإذا لم تكن على مذهب أهل البيت، فما الفرق بين إسرائيل وفلسطين؟(!) وإلى متى ستكون مائدة الشعب الإيراني ممدودة للغرباء، فيما الشعب الإيراني يتضور جوعاً؟»!

إذن، لا فرق بين الإسرائيليين والفلسطينيين عند الشيعة إذا لم يدخل الفلسطينيون في مذهب التشيع، لا؛ بل إن الفلسطينيين في العراق، لم ينجوا من تنكيل الشيعة وأذاهم كما نجا اليهود والنصارى هناك منهم، وأخبار الفتك بهم وطردهم وتهجيرهم على يد العصابات الشيعية العربية والصفوية لا يكاد يصدقها عقل، ويمكن متابعة الأنباء عن ذلك في موقع (فلسطينيو العراق). http: // www.paliraq.com

كان لا بد من هذا الاستطراد الذي قد يبدو خارجاً عن موضوع (حرب تموز)، تلك الحرب التي عدّها ما يسمى بـ(حزب الله) أول انتصار إسلامي عربي على اليهود في العصر الحديث! فهل كان ذلك ـ لو كان كذلك ـ لأجل المسجد الأقصى أم لأجل الفلسطينيين السُّنّيين؟!

وإذا كان الشيعة في إيران يزعمون أنهم يدعمون قضية فلسطين؛ لأنها أرض إسلامية تعرضت للاحتلال؛ فلماذا تعاونوا هم مع أعداء الأمة في تعريض أراضٍ إسلامية أخرى للاحتلال، وذلك في العراق وأفغانستان؟! ولماذا لم تهَبّ إيران

القوية الفتية لنصرة المسلمين (المستضعفين) في الشيشان أو كشمير أو الصومال أو الفلبين أو غيرها؟

إن الأجوبة على تلك الأسئلة تُلقي ظلالاً داكنة على الزعم بأن ما يسمى (حزب الله) في لبنان كان يُقاتل على أجندة إسلامية عامة، والحقيقة أنه قاتل بشجاعة لكن على أجندة شيعية طائفية خاصة، حفاظاً على الأرض التي «ورثها» في الجنوب اللبناني من الوجود السني؛ حيث تعاون الشيعة مع اليهود والنصارى في إخراج الفلسطينيين من ذلك الجنوب في الجولة الخامسة من الصراع العربي الإسرائيلي على أرض لبنان.

قد يقول قائل: وهل تعدُّون منظمة التحرير ومقاتليها من المحسوبين على أهل السنة؟! والجواب: إن الشيعة لا يتعاملون بالحسابات الصحيحة في ذلك، ولا يهمهم إلا المسمى الطائفي، ودليل ذلك أنهم حاربوا صدام حسين ثماني سنوات في حرب الخليج الأولى، وتفرجوا عليه في حرب الخليج الثانية، وشاركوا في إذلال دولته واحتلالها في حرب الخليج الثالثة، وظلوا شامتين به بعد سقوط نظامه، حتى شاركوا بأنفسهم في إسقاطه بحبل المشنقة، معتبرين أنه كان قائداً للسنة، وزعيماً للنواصب الذين اغتصبوا الملك من الشيعة!

لقد سارت أحداث حرب لبنان لعام ٢٠٠٦ في اتجاه تكريس النفوذ الشيعي على حساب بقية الطوائف في جميع لبنان، فالحرب التي بدأها ما يسمى بـ(حزب الله) وجنى منها ما جناه من مكاسب طائفية؛ كانت جناية على بقية سكان لبنان، وبخاصة أهل السنة، فقد أعادت تلك الحرب لبنان إلى الوراء أكثر من ربع قرن من الزمان ـ كما سيأتي تفصيل ذلك ـ لكن لعل من المناسب أن نبدأ بأهم محطات تلك

الجولة من الصراع، وذلك من خلال المشاهد التالية:

* بدأت الحرب في صباح ٦ يوليو (تموز) من عام ٢٠٠٦، واستمرت نحو ٣٣ يوماً، عمّت خلالها الغارات معظم أراضي لبنان، وقد نشبت بسبب قيام مقاتلين من الحزب الشيعي بالهجوم على مركبتين عسكريتين إسرائيليتين، قتلوا خلاله ثلاثة جنود إسرائيليين، وأسروا اثنين، وفي اليوم التالي شن الجيش الإسرائيلي هجوماً جويّاً على مواقع لبنانية عديدة، وبدأ في فرض حصار بحري وجوي شامل على جميع لبنان.

* أطلق الإسرائيليون على عمليتهم العسكرية اسم (الجزاء العادل)، معتبرين إياها عملية تحرير للأسيرين المختطفين في عملية (الوعد الصادق) لحزب الشيعة.

* حدث انقسام على المستوى الدولي، وعلى المستوى العربي، وعلى المستوى اللبناني، تجاه تلك الحرب، فبينما اعتبرت مجموعة الدول الثماني[1] هذه الحرب دفاعاً مشروعاً عن النفس تقوم به دولة اليهود، عدتها دول أخرى رد فعل مبالغ فيه، وانقسم الشارع العربي والإسلامي تبعاً لانقسام الأنظمة في تأييدها لهذه الحرب أو معارضتها، لكن الغالبية من الشعوب العربية والإسلامية تعاطفت مع ما يسمى بـ(حزب الله) نظراً لأنه خاض حرباً ضد الكيان اليهودي الذي عجزت الأنظمة عن ردعه، ورأوا في التصدي الشيعي له شجاعة لم يعهدوها بشكل واضح في أكثر الجولات العسكرية السابقة خلال سني الصراع العسكري ضد اليهود.

* استمرت الغارات الإسرائيلية على لبنان طيلة شهر كامل، رفضت الولايات

---

(١) هي: أمريكا، وروسيا، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وكندا، واليابان.

المتحدة خلاله على لسان وزيرة خارجيتها (كوندليزا رايس) أن يصدر قرار بوقف إطلاق النار، وكانت أمريكا تؤمل أن تنتهي تلك الحرب بانتصار (إسرائيل) على ما يسمى (حزب الله) بما يعني انتصار أمريكا على إيران، ولكن الأمور سارت في اتجاه آخر غير ما تحب أمريكا أو ترغب إسرائيل.

* على الرغم من أن التقويم الأخير لحرب لبنان لا يرجح بشكل حاسم المنتصر من المهزوم فيها، إلا أن المتفق عليه أن خسائر الشعب اللبناني في تلك المعركة لم يكن يتوقعها أحد، فقد ألقى اليهود بكل ثقلهم في المعارك، على الرغم من عدم استعدادهم المسبق لها، حتى أسفر ذلك عن نتائج كارثية على لبنان بكل المقاييس، ويتضح ذلك من خلال الأرقام التالية التي أعلنت عنها الكثير من المصادر بعد انتهاء الحرب:

■ عدد القتلى على الجانب اللبناني كان (٢٠٢٣) شخصاً، في مقابل (١٤٤) قتيلاً إسرائيلياً، منهم ٤٠ مدنياً، وعدد الجرحى من لبنان بلغ (٣٧٤٠) مقابل (٣٦٠) من الكيان الصهيوني.

■ بلغ عدد الجسور المدمرة في لبنان (٧٢) جسراً، وعدد المطارات المدمرة والمعطلة (٣) وعدد المرافئ البحرية (٤) في مقابل لا شيء عند الإسرائيليين، وبينما دُمِّر في لبنان (٢٨٠٠٠) منزل، وتصدع ١٤٠٠٠ منزل في أنحاء البلاد، لم تدمر صواريخ (حزب الله) أكثر من (١١) منزلاً في شمال (إسرائيل).

■ بلغت النسب المئوية لخسائر لبنان في تلك الحرب على أصعدة مختلفة معدلات مفزعة؛ فقد دُمرت ٦٥٪ من البنية التحتية للبنان، وأصيب ٤٠٪ من

الشواطئ بالتلوث، ودُمر من الطرقات ٤٥٪، ومن الإنتاج الزراعي لشهر يوليو وأغسطس نحو ٧٠٪، وأصيب قطاع الإنتاج الاقتصادي بخسائر ١٠٠٪، وقطاع السياحة لمواسم ٢٠٠٦ أصيب بخسائر ١٠٠٪، وكذلك توقفت الاستثمارات العربية والعالمية خلال أسابيع الحرب بنسبة ١٠٠٪، ودمرت نحو ١٧٣٠ سيارة مدنية لبنانية، مقابل ٧٦ سيارة إسرائيلية. وقد بلغت تكاليف تلك الحرب على لبنان قريباً من ١٥ مليار دولار.

■ أما عن فاعلية صواريخ (حزب الله) التي أطلقت على شمال (إسرائيل) وبلغت نحو خمسة آلاف صاروخ، فقد بلغ عدد قتلاها من الإسرائيليين ١٠٤ قتلى مدنيين، وهذا ينبئ عن فاعلية ضئيلة لتلك الصواريخ، مقارنة بعددها الهائل؛ فبحسب الحسابات العسكرية يفترض أن يقتل كل صاروخ خمسة أشخاص على الأقل، فيكون العدد المفترض لقتلى خمسة آلاف صاروخ أطلقت هو نحو خمسة وعشرين ألف إسرائيلي، وهذا ما لم يحدث، على الرغم من أن الصواريخ أطلقت على أماكن سكانية، وليس في صحارٍ خالية. إذن هناك مبالغة مضخمة لنتائج ما سماه الشيعة (الانتصار الأسطوري)!

مما لا شك فيه أن الخسائر المادية المباشرة لحزب الشيعة نفسه لا تعد كبيرة؛ لأن هذا الحزب لم يكن هو المالك للأموال الطائلة التي خسرها اللبنانيون فيما دمرته الحرب، ولكن الخاسر الأكبر كان هو الشعب اللبناني؛ حيث أخرته هذه الحرب إلى الوراء عقوداً، وعطلت التنمية فيه، وضاعفت ديونه العامة، التي كانت قد بلغت طوال ١٥ سنة قبل تلك الحرب ١٥ مليار دولار، بينما قفزت خلال أيام الحرب وحدها إلى ١٥ مليار دولار أيضاً، ولكن في مدة شهر واحد!

لقد أسفرت تلك الحرب عن نتائج بالغة التأثير على مجريات الصراع على النفوذ في المنطقة، وأهم هذه النتائج:

■ على المستوى اللبناني: أعطت الحرب نفوذ الشيعة والمتحالفين معهم حضوراً أكبر بكثير مما كان عليه الحال قبلها، وهو ما انعكس ضعفاً على الحالة السنية الرسمية في لبنان - على الرغم من علمانيتها - بحيث أصبحت حركة ١٤ آذار والقوى المتحالفة معها، مهددة بالسقوط بعد انتهاء تلك الحرب أيضاً، وقد أنعشت تلك الحرب أيضاً رغبة الحكومة السورية (العلوية) في إعادة نفوذها في لبنان عن طريق جسر العودة الذي أقامه لها حزب الشيعة هناك.

■ على المستوى الإقليمي العربي: تسببت تلك الحرب في تراجع الحديث عمَّا يسمى «عمليــة السلام» في الشرق الأوسط، سواء على المستوى الفلسطيني أو السوري أو اللبناني؛ حيث تحفزت الأطراف بعد تلك الحرب لجولة وربما لجولات أخرى من الحروب؛ حيث تأهبت الأطراف العلنية والخفية في حرب لبنان الثانية لاستثمار نتائجها أو استرجاع ما ضاع بسببها، وقد أدت نتائج تلك الحرب إلى مزيد من تفكك النظام العربي الرسمي، الذي انقسم أو قُسِّم إلى معسكرين؛ معسكر «معتدلين» يضم كل المتحالفين والمنسجمين مع سياسة أمريكا، ومعسكر «متشددين» يضم كل المتحالفين أو المنسجمين مع السياسة الإيرانية الخارجة عن الإجماع الغربي عامة والأمريكي خاصة، وهو ما أوجد حالة من عدم الثقة في البلدان التي بدت في صف الولايات المتحدة و(إسرائيل)، ضد ما يعدُّ شأناً عربيّاً قومياً.

■ على المستوى الإسلامي: أسهمت تلك الحرب في صعود التأييد الشعبي

للتيار الإسلامي المقاوم بوجه عام، فإضافة إلى الأسهم التي ارتفعت بها المقاومة السنية في العراق، أعاد الشيعة الاعتبار إلى ما سُمي بالمقاومة الإسلامية الشيعية، وقد أدى ذلك إلى إنهاض روح الجهاد من جديد عند شرائح عديدة في الأمة، ولا سيما أن غالبية العامة من الناس لا يدركون الفروق العميقة التي تميز بين المقاومة السنية والمقاومة الشيعية، من حيث المنطلقات أو الدوافع أو الأهداف، لكن من ناحية أخرى أوجدت تلك الحرب لغطاً كبيراً بين فصائل الإسلاميين السنة، بسبب تعدد المواقف من تأييد الحزب الشيعي أو عدم تأييده، بوصفه حزباً قائماً على المذهب الإثني عشري المصنف عقائديّاً بالابتداع المغلَّظ، وهذا ما أضاف عاملاً جديداً من عوامل التفرق الحاد في المواقف بين الجماعات والحركات الإسلامية حيال القضايا السياسية الكبيرة التي تعيشها الأمة.

■ **على المستوى الإسرائيلي**: كانت تلك الحرب، وعلى الرغم من الضربات الإسرائيلية الموجعة للشعب اللبناني، أكثر وجعاً للإسرائيليين؛ حيث شاع القول في المنطقة والعالم بأن الجيش الإسرائيلي المشهور بأنه لا يقهر؛ قد قُهِر في تلك الحرب، واهتزت صورته بعد أن سقطت أسطورته، وهو ما انعكس ارتباكاً على المؤسستين السياسية والعسكرية في الكيان الصهيوني، لكن ذلك الكيان استفاد أيضاً من تلك الحرب من حيث إنها أعطت فرصة جديدة للتسويف في استحقاقات ما يسمى «عملية السلام» إلى وقت طويل. ولا بد أن الإسرائيليين سيستثمرونه بدعوى أن الأجواء ليست مناسبة لسلام شامل في المنطقة الآن.

■ **على المستوى الأمريكي**: اعتبر المراقبون أن الولايات المتحدة الأمريكية التي قاتل الإسرائيليون عنها بالنيابة في تلك الحرب، قد هزمت بالنيابة عنهم أيضاً

أمام وكلاء إيران في المنطقة، وهو ما أثر في نوايا أمريكا شبه المعلنة في المنطقة، وبخاصة التحرش بإيران لضربها بعد ضرب العراق؛ فقد قلصت تلك الحرب لفترة فرص شن هجوم أمريكي على إيران، بعد أن تبين أن مجرد ذراع عسكري للإيرانيين في لبنان، قَلَبَ الطاولة على أمريكا وحلفائها، فماذا لو تحركت إيران بنفسها بعد استفزازها للدفاع عن نفسها؟

■ **أما على المستوى الإيراني**: فقد كانت إيران هي الرابح الأكبر؛ لأن وكلاءها قد خاضوا الحرب نيابة عنها، دون أن يكلفوها خسائر تذكر، بل جُيّرت كل إيجابيات تلك الحرب لصالحها، فتعزز موقفها في العراق، حيث أصبح جنود أمريكا كلهم هناك في مرمى الإيذاء الإيراني، بل زاد ذلك من هيبة إيران في المنطقة، حتى عادت بعض الأنظمة العربية تخطب ود الإيرانيين، وتبحث عن علاقات صداقة طبيعية معهم.

■ **وعلى المستوى الأوروبي**: أوجدت تلك الحرب موطئ قدم جديد للأوروبيين في لبنان، إذ إنهم هم المرشحون أكثر من غيرهم لتولي عملية إعادة إعماره، وقد جاءت دول أوروبية عديدة بقواتها إلى سواحل لبنان ضمن القوات المتعددة الجنسيات لحفظ السلام (اليونيفيل)[1]، التي أضافت عاملاً جديداً إلى

---

(١) قوات (اليونيفيل): هي قوات تابعة لمجلس الأمن الدولي، جاءت إلى لبنان عام ١٩٧٨م، ومهمتها الظاهرية هي التحقق من الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان، وتمكين الجيش اللبناني من السيطرة على الجنوب. وبعد حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦م، قرر مجلس الأمن زيادة أعدادها لتصل إلى ١٥ ألف جندي، وأسند إليها مهمة نزع السلاح من الجنوب اللبناني عدا سلاح تلك القوات وسلاح الجيش اللبناني، بناء على قرار (١٧٠١) بإيقاف القتال في حرب لبنان.

التوتر في المنطقة.

أما لماذا عددتُ تلك الحرب ـ على فرض انتصار حزب الشيعة اللبناني فيها ـ ضمن سلسلة الفشل في الصراع العربي الإسرائيلي؟

فلا شك أنها كذلك لعدد من الاعتبارات، ومن أهمها:

- أنها أضافت أبعاداً أخرى إلى انكشاف النظام العربي الرسمي، الذي ترك لإيران أن تملأ الفراغ الرهيب الذي تركه ذلك النظام في ساحة ذلك الصراع الكبير.

- أنها زادت من تعقيد الموقف في لبنان، لصالح الطائفة الأكثر طموحاً وجموحاً، والأكثر إرتهاناً لأجندة خارجية لا تعير اهتماماً لمصالح العرب خصوصاً، والمسلمين السنة عموماً.

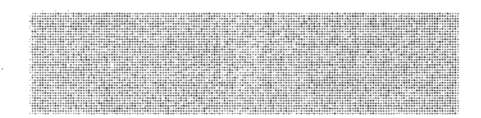
- أن تلك الحرب ـ على مستوى العمل الإسلامي ـ كشفت عن عوار خطير في الواقع الدعوي الإسلامي، حيث تبين أن الدعوة الإسلامية الصحيحة، لم تتمكن إلى اليوم، من الوصول بدعوتها العقدية إلى البنية التحتية في الأمة، إلى الدرجة التي مكَّنت مَنْ ناصبوا الصحابة وعموم أهل السنة العداء، أن يظهروا أمام سواء الناس أنهم أكثر «الإسلاميين» شجاعة وأبعدهم حنكة، وأحرصهم على الدفاع عن حرمات الأمة!! ولا شك أن هذه الدعاوى وفرت لأعداء الصحابة فرصة «تبشيرية» نادرة، سيستغلها هؤلاء «النواصب» الحقيقيون، لمزيد من الدجل على الناس، باسم محبة أهل البيت!

- أن ما قد يأتي بعدها من جولات قادمة، ضد سورية وإيران، ستكون ثأراً دموياً رهيباً لتلك الحرب، ربما يقود إلى (حرب طائفية إقليمية)، كانت المنطقة في غنىً عنها، حيث يمكن أن تنقسم المنطقة بعدها، لا إلى معسكر «معتدلين» ومعسكر «متشددين» فحسب، بل إلى معسكر سنة ومعسكر شيعة، يتركهم الأمريكان والإسرائيليون يطحن بعضهم بعضاً!



القسم الثاني

أوهام السلام
في أجواء الصدام





مدخل:

على الرغم من قناعتنا نحن المسلمين بأن السلام (الدائم) مع اليهود أمر مستحيل، فضلاً عن كونه أمراً غير مشروع لعدم جواز الاعتراف لهم باغتصاب أرض فلسطين. . إلا أن كثيراً من القيادات العربية كانت تمني نفسها بإمكانية تحقيقه ـ ولا تزال ـ، مع تجاوز البحث في مشروعية تطبيقه، وكانت تلك القيادات تتطلع من خلال البحث عن (السلام) إلى تحصيل ما عجزوا عن تحقيقه عبر السلاح.

ونحن سنفترض حسن النية في هذه القيادات، وسنفترض أنها فعلاً أرادت التغلب على اليهود عبر طاولة المفاوضات بدلاً من ساحة الصراعات، سنستبعد إلى حينٍ ما يعده بعضهم: هواجس التآمر، ووساوس الخيانة، واتهامات العمالة، وسنقول: إن هؤلاء أرادوا حقّاً الانتصاف للأمة من عدوها سِلماً بعد أن عجزوا عن الانتصار لها حرباً.

فهل أفلحت تلك القيادات في السلام بعد أن فشلت في الحرب؟!

هذا ما سنناقشه من خلال استعراض مسيرة الحلول السلمية التي حملها (قطار السلام) الذي انطلق بعد حرب ١٩٧٣م الذي توقفت عجلاته في عدد من

المحطات، ليفرغ في كل واحدة منها ما يحمله من سقط المتاع ومن بضاعة الفشل، ليبدأ بعدها في تحميل الأمة مزيداً من المهام أو الهموم خلال مساراته المتعددة والمتعرجة[1].

---

(١) لمزيد من الاطلاع على (عملية السلام) العربية الإسرائيلية، راجع المصادر التالية:
- الإدراك الصهيوني للعرب والحوار المسلح: د. عبد الوهاب المسيري، دار الحمراء، ط (١)، ٢٠٠٤م.
- عمليه السلام: وليام كوانت، ترجمة هشام الدجاني، مكتبة العبيكان، ط (١)، ٢٠٠٢م.
- نهاية عملية السلام: إدوارد سعيد، دار الآداب، ط (١)، ٢٠٠٢م.
- التسوية الصعبة: عدنان السيد حسن، مركز الدراسات الاستراتيجية، ط (١)، ١٩٩٨م.
- مفاوضات السلام: المسارات والخيارات والاحتمالات: برهان الدجاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط (١)، ١٩٩٤م.
- آفاق السلام في الشرق الأوسط: وليد الخالدي، دار النهار، ط (١)، ٢٠٠٢م.
- السلام الإسرائيلي المسلح: كميل حبيب، المؤسسة الحديثة للكتاب، ط (١)، ٢٠٠٢م.
- الخداع الإسرائيلي-رؤية فلسطينية لمفاوضات كامب ديفيد وتوابعها: المؤسسة العربية للدراسات الفلسطينية، ط (١)، ٢٠٠٣م.
- فلسطين / إسرائيل . . سلام أم فصل عنصري: مروان بشار، دار الكتاب العربي، ط (١)، ٢٠٠٣م.
- المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل: محمد حسنين هيكل، دار الشروق، ط (١٠)، ٢٠٠٣م.
- مفاوضات السيادة على الشرق الأوسط: يحيى غانم، دار الخيال، القاهرة، ط (١)، ٢٠٠١م.
- مفاوضات التسوية النهائية والدولة الفلسطينية: طاهر شاس، دار الشروق، ط (١)، ١٩٩٩م.
- التسوية وقضايا الحل النهائي: ماجد كيالي، مركز الدراسات الاستراتيجية، ط (١)، ١٩٩٨م.
- اتفاقيات ومساعي التسوية بين الدول العربية والكيان الصهيوني: إعداد المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، ط (١)، ١٩٩٨م.

المحطة الأولى

مؤتمر جنيف عام (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)

جاءت الإشارة الأولى لقبول العرب إنهاء الصراع العسكري مع اليهود المغتصبين لفلسطين عام ١٩٥٥م/ ١٣٧٥هـ، عندما أعلن جمال عبد الناصر في مؤتمر (باندونج) قبوله قرار تقسيم فلسطين الصادر عن الأمم المتحدة. وقد قبل أيضاً مبادرة (روجرز) للسلام الأمريكي التي تقترح قبولاً عربياً للاعتراف بدولة (إسرائيل) وإقرارها على ما احتلته من أراضٍ فلسطينية في حرب ١٩٤٨م. وبعد هزيمتين عربيتين في عهد عبد الناصر؛ رفع العرب شعار (الحرب من أجل السلام). وتحت ذلك العنوان وبتلك الروح؛ دخل العرب الحرب الرابعة ضد اليهود عام ١٩٧٣م. وفي أثناء تلك الحرب، وقبل أن تضع أوزارها، وجه الرئيس المصري السابق (أنور السادات) يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣م (أي بعد بدء الحرب بعشرة أيام) رسالة مفتوحة إلى الرئيس الأمريكي الأسبق (ريتشارد نيكسون) اقترح فيها مشروعاً للسلام يتضمن الدعوة إلى إيقاف إطلاق النار على أن تنسحب إسرائيل فوراً من جميع الأراضي العربية التي احتلتها في حرب يونيو ١٩٦٧م، وأبدى

استعداده لحضور مؤتمر سلام دولي لإقرار السلم في منطقة الشرق الأوسط.

وسرعان ما تحركت الأطراف الدولية وعلى رأسها (واشنطن) و (موسكو) لإنهاء القتال الذي بدا أنه كان يمكن أن يهدد الدولة اليهودية، وأسفرت جهودهما عن صدور قرار عن مجلس «الأمن» الدولي يدعو في حقيقته إلى أمن (إسرائيل)، ووقف القتال ضدها، والبدء فوراً في مفاوضات بهدف إقامة سلام (دائم) و(عادل!) في الشرق الأوسط، وسارعت مصر وسورية والأردن و (إسرائيل) أيضاً إلى قبول قرار وقف إطلاق النار، بينما رفضته العراق ومنظمة التحرير الفلسطينية التي كانت لا تزال تتبنى مبدأ عبد الناصر وهو أن (ما أُخِذ بالقوة لا يمكن أن يسترد بغير القوة). وهنا؛ وبسبب عدم وجود أرضية من الثوابت المشتركة؛ بدأ التصدع في الجدار العربي الذي كان مائلاً أصلاً بسبب الأرض الهشة التي يقف عليها، فمصر بدأت تسير في (عملية السلام) في اتجاه الحل المنفرد، بينما تباينت مواقف الدول العربية الأخرى، بما يدل على أن العرب بدؤوا عملية السلام في مراحلها المبكرة دون أدنى اتفاق للثوابت أو تحديدها أو تنسيقها، كما كان شأنهم عبر عقود الحرب.

ثم جاء وقت انعقاد مؤتمر (جنيف) الذي دعا إليه مجلس الأمن بعد الحرب، ودُعيت الأردن إلى المشاركة في مؤتمر جنيف، بعد أن أبدى الملك حسين تخوفاً من استبعاد بلاده عن عملية السلام، فقد كان حريصاً على استعادة الضفة الغربية التي كانت تابعة للأردن، إلا أن الملك حسين أبدى فيما بعد قناعة بأن ذلك المؤتمر لم يكن سوى تمثيلية لإضفاء شرعية على اتفاق منفصل بين مصر و(إسرائيل) تمهد أمريكا للوصول إليه.

وقد افتتح مؤتمر جنيف في ٢١ ديسمبر عام ١٩٧٣، أي بعد الحرب بشهرين، تحت رعاية الأمم المتحدة، وبناء على قرار مجلس الأمن رقم (٣٣٨)[1]، بمشاركة أمريكا والاتحاد السوفييتي ومصر والأردن و(إسرائيل)، ورفض الرئيس السوري الراحل (حافظ الأسد) مشاركة سورية في المؤتمر؛ لأن المؤتمر في رأيه لا يهدف إلى انسحاب إسرائيل من كافة الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧، ومن ضمنها الجولان السوري، وقد فرض الإسرائيليون شروطهم على ذلك المؤتمر الدولي، بدليل استجابة الأمم المتحدة لشرطهم في استبعاد منظمة التحرير الفلسطينية عن حضور المؤتمر، كما أنها اشترطت لحضور سورية أن تحل مشكلة الأسرى اليهود في حرب أكتوبر.

يذكر هنا أن الطرفين العربيين المشاركين في المؤتمر (مصر والأردن) لم يجرِ بينهما قبل المؤتمر ولا في أثنائه أي تنسيق، بل رفض (إسماعيل فهمي) وزير الخارجية المصرية في ذلك الوقت التنسيق مع (زيد الرفاعي) ممثل الأردن في المؤتمر، بل حصل تناقض بين الوفدين في عرض المشكلة؛ إذ تحدثت الأردن عن الضفة الغربية على أنها أرض أردنية، بينما تحدث الوفد المصري عنها على أنها أرض فلسطينية! أما ممثل الدولة اليهودية في المؤتمر، وزير خارجيتها

---

(١) القرار (٣٣٨): هو القرار الذي أصدره مجلس الأمن الدولي في ٢٢ أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٧٣، خلال حرب أكتوبر في العام نفسه، وقد نص ذلك القرار على وقف إطلاق النار والتطبيق الكامل والفوري للقرار (٢٤٢) بكل بنوده، ودعا إلى مفاوضات بين الأطراف المعنية، بهدف إقامة سلام دائم في الشرق الأوسط. وبذلك القرار توقف القتال في سيناء والجولان في حرب أكتوبر، إلا أن دولة اليهود رفضت ذلك القرار، ولا تزال ترفض العمل به.

الأسبق (أبا إيبان) فقد أكد في كلمته أن بلاده لن تعيد الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، وبخاصة القدس، التي أكد أمام الحضور أنها هي «العاصمة الأبدية والموحدة لإسرائيل»!

ومع ذلك فقد مضى المؤتمر إلى ما خُطط له، وهو تجاوز الحديث عن حل سلمي «شامل» للصراع، إلى خطوات عملية لفصل القوات تحقيقاً لشعار اليهودي المخضرم (هنري كيسنجر) وهو «السلام وفق سياسة: الخطوة خطوة»!

وقد تبين بعد مضي أعوام من انعقاد المؤتمر، أن الولايات المتحدة الأمريكية، رعت اتفاقاً سريّاً مبكراً بين مصر وإسرائيل لإنهاء الصراع العسكري بينهما! وهو ما أكده الملك الأردني الراحل (الحسين بن طلال)! وعلى هذا تبين أن المؤتمر الدولي للسلام في جنيف، الذي رعته «الشرعية» الدولية، لم يكن إلا خدعة إسرائيلية برعاية أمريكية وروسية، وكانت أهم نتائج ذلك المؤتمر:

- عزل الأردن عمليّاً عن (عملية السلام) من الطرف الأمريكي حتى يُنتهى من أمر مصر، والسير فعليّاً في اتجاه عدّ وادي الأردن حدوداً آمنة لدولة اليهود، وهو ما جعل الأردن يتجه إلى الاتصال المباشر مع اليهود متجاوزاً الولايات المتحدة.

- توقيع اتفاق بين مصر و(إسرائيل) في ١٨ يناير ١٩٧٤ للفصل بين قواتهما، بوصفها خطوة أولى باتجاه عقد معاهدة «سلام» نهائي بينهما، بعيداً عن بقية الأطراف العربية.

- استبعاد منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة ياسر عرفات عن عملية السلام (مؤقتاً) والسير باتجاه عدّ الأردن متحدثاً عن الفلسطينيين، وبالتحديد عن الضفة

الغربية المحتلة . وهذا ما أكده الأردن في مؤتمر القمة العربي المنعقد في مدينة الرباط في ٢٦ أكتوبر ١٩٤٨ ، لكن ياسر عرفات طالب مؤتمر القمة باعتبار منظمة التحرير هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ، فوافق المؤتمر على ذلك ، واضطر الأردن إلى القبول .

ولم تنعقد الجلسات التالية المقررة لمؤتمر جنيف ؛ لأن الدولة العبرية تعللت بانشغالها بالانتخابات البرلمانية للكنيست ، واكتفت بالغنيمة المصرية من ذلك الاحتفال الافتتاحي لاستسلام العرب ، حتى تتمكن من هضم الوجبة وتحقيق أكبر استفادة منها ، ريثما يأتي الذي يليها .



المحطة الثانية

كامب ديفيد «الأولى» (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م)

تمخض مؤتمر جنيف المنعقد في شهر ديسمبر عام ١٩٧٣م، عن توقيع (اتفاقية جنيف) بين مصر و(إسرائيل)، وقد نصّت تلك الاتفاقية على انسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء، وإقامة قطاع عازل بينها وبين القوات المصرية تحت رعاية الأمم المتحدة، وإعادة فتح قناة السويس أمام حركة الملاحة الإسرائيلية، إضافة إلى إقامة محطات إنذار مبكر أمريكية تضمن عدم وجود تحرشات بين الطرفين.

وظلت المساعي تبذل للتوصل إلى اتفاق معلن بإنهاء الصراع العسكري بين مصر و(إسرائيل)، إلى أن قام الرئيس المصري السابق (أنور السادات) بزيارة بدت مفاجئة للعالم إلى (القدس) في نوفمبر ١٩٧٧، ليتحدث أمام الكنيست الإسرائيلي عن رغبة مصر في الوصول إلى سلام مع الدولة العبرية. وعلى الرغم من أن هذه الزيارة اشتهرت على أنها «مبادرة» من السادات قام بها من طرفه، إلا أنها في حقيقتها كانت استجابة لدعوة من رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق (مناحيم بيجن) استجاب لها الرئيس المصري.

وقد توالت الأحداث بعد ذلك لتوصل إلى الهدف المحدد بدقة من قبل، وهو إخراج مصر من ساحة المعركة مع اليهود، لينكسر بذلك أحد فكي الكماشة التي كان يمكن لها في وقت من الأوقات أن تكسر ظهر الكيان اليهودي في فلسطين، وكانت (كامب ديفيد) الاتفاقية التي أوصلت إلى هذا المصير المنتظر، فقد أعلنت الولايات المتحدة في ١٧ سبتمبر ١٩٧٨م عن توصل كل من مصر (وإسرائيل) إلى صيغة اتفاق بينهما لوضع حد نهائي للنزاع العربي الإسرائيلي، وكان هذا الإعلان بعد سلسلة من الاجتماعات استمرت (١٣) يوماً، ضمت كلاً من الرئيس الأمريكي الأسبق (جيمي كارتر) والرئيس المصري السابق (أنور السادات) ورئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق (مناحيم بيجين)، وكان ذلك في المنتجع الذي أطلقوا عليه (مخيم داود)[1] الذي اشتهر إعلامياً باسم (كامب ديفيد).

وقد تطور الاتفاق بين مصر و(إسرائيل) إلى الإعلان عما عرف بـ(معاهدة السلام) في ٢٦ مارس ١٩٧٩م، وقد تضمنت التوقيع على اتفاقيتين منفصلتين:

الأولى: تتعلق بتحديد أسس علاقات السلام بين دولة اليهود والدول العربية الأخرى، وتدعو بقية دول «المواجهة» أن تحذو حذو مصر في إنهاء الحروب مع

---

(١) مخيم داود، أو معسكر داود، أو خيمة داود: كلها معانٍ لا تخلو من إيحاء ديني توراتي، فداود - عليه السلام - تمكن بعد استرجاع (خيمة الاجتماع) التي تنزلت فيها التوراة على موسى عليه السلام، التي كان بنو إسرائيل يستنصرون بها على أعدائهم لأن داخلها تابوت العهد؛ تمكن من هزيمة (العمالقة) الفلسطينيين، حيث كانوا على الوثنية قبل أن يمن الله عليهم بالإسلام دين الاصطفاء، ويخرج عدوهم (اليهود) من دائرة الاصطفاء إلى دائرة اللعن على لسان الأنبياء، ولهذا نسبت تلك الخيمة إلى ذلك النبي، فقيل: (خيمة داود).

اليهود، وتنص من جهة أخرى على إقامة حكم ذاتي للفلسطينيين في الضفة الغربيـة وقطـاع غـزة، وذلك مدة خمسة أعوام، دون تحديد موعد البدء بها، أو ما سيكون عليه الحال بعدها. وقد أُطلق على هذه الاتفاقية اسم (إطار عملية السلام من الشرق الأوسط).

أما الوثيقة الثانية: فقد أُطلق عليها (إطار عمل لمعاهدة سلام بين مصر وإسرائيل): فحددت أسس معاهدة سلام منفرد بين الدولتين، على أن تنجز وتبرم في مدة لا تتعدى ثلاثة أشهر من تاريخ اجتماعات (كامب ديفيـد). أما بنود هذه المعاهدة الثانية، فهي تأكيد كل الإجراءات التي من شأنها إيقاف أي أعمال عسكرية بين الطرفين بشكل نهائي، واستعداد كل طرف لممارسة علاقات «طبيعية» مع الطرف الآخر، وهذا ما سُمِّي فيما بعد بـ «عمليات التطبيع».

ونصت إحدى بنود هذه الاتفاقية على أنها معاهدة ملزمة، وليس لأحد الطرفين حق نقضها! وأهم الخطوط العامة لهاتين الاتفاقيتين ما يلي:

* **الاتفاقية الأولى نصت على**: أهمية عقد مفاوضات (سلام) بين الدولة العبرية والأطراف العربية التي احتُلت أراضيها في حرب ١٩٦٧، وهي مصر والأردن وفلسطين. أما سورية فلم تتطرق لها الاتفاقية؛ لأنها رفضت من البداية المشاركة في مؤتمر جنيف الدولي للسلام.

* **الاتفاقية الثانية نصت على**: بدء التفاوض (المباشر) بين الطرفين: المصري والصهيوني، لتحقيق الانسحاب من سيناء، تمهيداً لإقامة علاقات «طبيعية» بينهما تبدأ بعد المرحلة الأولى من الانسحاب.

ومن الجدير ذكره هنا؛ أن تلك الاتفاقيات المعلنة صاحبتها أيضاً اتفاقات سرية؛ فكان هناك اتفاق سري بشأن لبنان يقضي بتجريد القوات الفلسطينية والميليشيات اللبنانية في جنوب لبنان من السلاح تدريجيّاً بإشراف دولي وعربي! وقد تُرجم هذا عملياً بعد ذلك بإخراج المقاومة الفلسطينية من لبنان عام ١٩٨٢م لتحل محلها، أو تحتل مكانها قوى شيعية اختطفت اسم المقاومة، وأطلقت على نفسها اسم: (المقاومة الإسلامية)، التي أخذت فيما بعد اسماً رسميّاً هو «حزب الله»!

وتتضمن بنود كامب ديفيد اتفاقات سرية أخرى وتتلخص فيما يلي:

١- وعد أمريكي لمصر بزيادة المساعدات المالية والاقتصادية كلما استمر تنفيذ بنود المعاهدة؛ ويتضمن ذلك وعداً أمريكياً آخر بتعويض مصر عن المساعدات العربية التي يمكن أن تفقدها بإيقافها من قِبَلِ الدول العربية، والمعروف أن المساعدات الأمريكية لمصر منذ التوقيع على كامب ديفيد تبلغ ١,٣ مليار دولار سنويّاً، وهي أقل من نصف المعونة الأمريكية للكيان الصهيوني.

٢- اتفاق على تنسيق التعاون بين الاستخبارات المصرية ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية الـ(سي. آي. إيه) ليس فقط يتعلق بالأوضاع في مصر، بل في إطار المنطقة العربية كلها.

٣- تتعهد أمريكا بتحديث الجيش المصري (ضد من..؟) وتزويده بالأسلحة الأمريكية التي تعوضه عن الأسلحة الروسية عند الاستغناء عنها!

٤- موافقة الرئيس المصري على تسريح قطاع كبير من الجيش المصري، بحيث تخفض أعداده من ٦٥٠ ألف جندي إلى ٢٥٠ ألف جندي فقط!

٥- السماح لأمريكا باستخدام بعض القواعد العسكرية التي ستتخلى لها عنها إسرائيل في سيناء!

٦- إعطاء أمريكا صلاحيات موسعة لاستخدام منطقة شرم الشيخ فيما يخدم إستراتيجتها في المنطقة.

بطبيعة الحال، كان لا بد أن ترفض أكثر الدول العربية اتفاقيات كامب ديفيد، لا لأنها تتضمن اعترافاً بدولة اليهود؛ فتلك مسألة كانت تتردد بين آن وآخر على ألسنة العديد من القادة العرب، ولكن لأن هذا الاعتراف جاء بشكل «منفرد» ودون سابق مشورة. أما الأدبيات القومية أو الليبرالية أو حتى الثورية؛ فإنها لم تكن تتضمن مبادئ ثابتة فيما يتعلق بضوابط الصداقة والعداء أو الولاء والبراء، فالدول التي كانت ترتمي في أحضان القوى الشيوعية الملحدة، أو النصرانية الصليبية الحاقدة؛ ما الذي كان يمنعها من إقامة علاقة ودية «طبيعية» مع دولة يهودية؟

لقد أثبتت الأيام بعد ذلك أن كل محرمات العلمانية يمكن استحلالها، وكل ممنوعاتها يمكن السماح بها، فليس ثَمّ حرام دائم أو حلال دائم عند من يستبدلون شرائع الأهواء بوحي السماء.

ولكن الظروف وقتها كانت لا تسمح إلا بالرفض على مستوى الدول، وأيضاً على مستوى الشعوب، التي صدمت فيما رأته تراجعاً عن ثوابت

لا يمكن التراجع عنها في ذلك الوقت، وقد عقدت الدول العربية مؤتمراً للقمة عُقد في بغداد عام (١٩٧٩) رفضت فيه الاتفاقيتين، ولحق ذلك قرار اتخذته الجامعة العربية بنقل مقرها من القاهرة إلى تونس، احتجاجاً على الخطوة المصرية، مع أن الدولة التونسية في عهد (بورقيبة) كانت هي أول من دعا علانية للصلح مع اليهود!

وقد نتج عن اتفاقية كامب ديفيد عدد من النتائج، من أبرزها:

- إنهاء حالة الحرب بين الدولة المصرية والكيان اليهودي، مع التعهد بعدم السماح بأي «تهديدات» أو عمليات «عدائية» بين الطرفين.

- إقامة علاقات دبلوماسية كاملة بين الطرفين، تبعتها علاقات اقتصادية وثقافية وإجراءات عملية نحو (تطبيع) العلاقات بين الدولتين، وإزالة القيود المفروضة على حرية التنقل، والسماح للدولة الصهيونية بالملاحة في قناة السويس، وكان ذلك أول اعتراف عربي (علني ورسمي) بشرعية الكيان اليهودي وحقه في الوجود «الشرعي» على أرض فلسطين من دولة عربية هي أكبر دول الجامعة العربية.

- انسحاب الكيان اليهودي من شبه جزيرة سيناء، وهو الانسحاب الذي اكتمل (عسكريّاً) عام ١٩٨٢م[١].

- عزل مصر عربيّاً، وقطع أكثر الدول العربية علاقاتها الدبلوماسية معها،

---

(١) كان ذلك في العام نفسه الذي بدأت فيه الحرب الإسرائيلية الخامسة ضد العرب، وهي حرب لبنان التي غزا فيها اليهود بيروت، ولم تستطع مصر أن تحرك ساكناً، بعد أن كبلتها (كامب ديفيد)، وكان هذا أول اختبار للالتزام المصري بالاتفاقية.

واتخاذ قرار بنقل مقر الجامعة العربية من مصر إلى تونس، حتى تلغي هذه الاتفاقية[1].

- تركُ الأطراف العربية الأخرى كي تبحث كل منها عن طريقة للتفاوض السلمي مع اليهود في القضايا التي تخصها، بعد أن أصبحت المواجهة (الجماعية) مستحيلة عسكريّاً، وغير مجدية سلميّاً في ذلك الوقت، بعد خروج مصر من المواجهة عسكريّاً، وعزلها عن قضايا العرب سياسيّاً.

- تعاظم دور الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة على حساب الاتحاد السوفييتي السابق، الذي استُبعد من عملية السلام المنفردة بين مصر وإسرائيل، التي كان قد شارك في التأسيس لها باشتراكه في مؤتمر جنيف عام ١٩٧٣ .

- وبالنظر إلى أن هذه النتائج كانت تأسيساً لمرحة جديدة من (الاستسلام) العربي للكيان اليهودي؛ فقد منح المجتمع الدولي جائزة نوبل لـ(السلام) إلى «البطلين» اللذين توصلا إلى تحقيق نهاية للصراع المسلح بين دولة اليهود، وبين أكبر دولة عربية، وهما: (مناحيم بيجن) و(أنور السادات)!

* * *

(١) كل الدول العربية أعادت علاقاتها الدبلوماسية مع مصر بعد ذلك، دون أن يتغير حرف من الاتفاقية! وأعيد مقر الجامعة العربية إلى مصر في مطلع الثمانينيات.

المحطة الثالثة

«مؤتمر فاس» (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م)

كان الرفض العربي لاتفاقية «كامب ديفيد» قد أخذ صورة تشنجية عالية الصوت، لامعة الضوء، ولكنها سراب يحسبه الظمآن ماءً، وقد أثمر هذا الرفض في النهاية ولادة ما أطلق عليه وقتها: (جبهة الصمود والتصدي)! تلك الجبهة التي تعهدت بالمضي في المعركة مع الغاصبين إلى النهاية، وأعلِن عن هذه الجبهة في مؤتمر القمة العربي المنعقد في بغداد عام ١٩٧٩م، وقد عقدت دول جبهة (الصمود والتصدي) المنبثقة عن ذلك المؤتمر بعد ذلك أكثر من مؤتمر لإحكام المقاطعة العربية للدولة التي خرجت عن (الإرادة العربية).

ولكن. . . لم يكد ينقضي عِقدٌ من الزمان حتى آل أمر جبهة (الصمود والتصدي) إلى الخمود والتصدع! فقد بدأ بعض أعضائها في التسلل تحت جُنْح الظلام إلى معسكر السلام! وقد شرع الرافضون لكامب ديفيد من (الصامدين) يتصدون لطرح مبادرة عربية، تقول للسلام مع اليهود: نعم، ولكن. . (بشكل

جماعي)! وكان ذلك في مؤتمر (فاس) الذي عقد في المغرب في شهر سبتمبر ١٩٨٢م، ومن العجيب أن ما علت الأصوات العربية باستنكاره من اتفاقات كامب ديفيد (الخيانية الانفرادية) قد سُطِّر بهدوء، ودون ضجيج في البند السابع من مشروع (فاس)، ولكن مع الفارق المذكور، وهو أن الأول كان بمبادرة فردية، والثاني كان بمبادرة شبه جماعية.

وتعد نتائج مؤتمر (فاس) هي الأرضية التي انطلقت منها بعد ذلك كل مشروعات التسوية، بدءاً من الاتفاق الأردني الفلسطيني (٢٢/ ١١/ ١٩٨٤م) الداعي إلى مبدأ (الأرض مقابل السلام) وحتى اتفاقات أوسلو، التي طلَّقت المنظمة فيها القضية وألقت البندقية، وصدق في مبادرة فاس المثل الشعبي: (وقعت الفاس في الراس)!

* * *

المحطة الرابعة
(إنهاء حالة الحرب مع لبنان)
(١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)

بعد تكبيل مصر باتفاقية «كامب ديفيد»، وفي العام الذي انسحب الإسرائيليون فيه من سيناء المصرية، دون أن تحل محلها قوات مصرية؛ جرى أول اختبار لالتزام مصر ببنود هذه الاتفاقية، فحدثت حرب لبنان، التي سارت أحداثها على الوجه المذكور سابقاً؛ حيث انتهت تلك الحرب بإخراج المقاتلين الفلسطينيين من جنوب لبنان وسط صمت وعجز عربي شاملين، ولم تدخل في الحرب إلا القوات السورية التي خرجت بعد خسارتها الجوية الفادحة، أما الجيش اللبناني نفسه، فقد فضل الوقوف «على الحياد» على الرغم من احتلال العاصمة اللبنانية نفسها!

وبعد انتهاء الحرب، ومع اقتراب نهاية عام ١٩٨٢؛ شرعت الحكومة اللبنانية في دخول (عملية سلمية) مع الكيان الصهيوني بوساطة أمريكية، وكان الهدف إنهاء حالة الحرب، والدخول في عملية (سلام) وتطبيع للعلاقات، بعد الاعتراف بـ«شرعية» الدولة اليهودية وحقها في اغتصاب فلسطين، مقابل انسحاب القوات

الإسرائيلية من الأراضي اللبنانية، وذلك على غرار الانسحاب من الأراضي المصرية، وبحيث تضمن لبنان حماية حدود دولة اليهود من أي أعمال «إرهابية» فلسطينية!

وبالفعل بدأت المحادثات، ثم المفاوضات، ثم الاتفاقات، واستغرق ذلك ستة أشهر، توصل الجانبان بعدها إلى ما أطلق عليه (اتفاق ١٧ آيار) من عام ١٩٨٣م، وهو اتفاق كان يقضي بجلاء القوات الإسرائيلية وإنهاء «حالة الحرب» التي كانت قائمة – افتراضاً – منذ عام ١٩٤٨، وقد أصرت الدولة العبرية على أن تكون هذه الاتفاقية شاملة ورسمية، تُوصِل إلى علاقات دبلوماسية كاملة، ولكن الدولة اللبنانية خشيت من مصير كمصير مصر، التي عزلها العرب لدخولها في تلك العملية دون تنسيق جماعي سابق، فاكتفت الحكومة اللبنانية باتفاقية لإنهاء الحرب دون دخول في عملية سلام رسمية، وقد نصت الاتفاقية على أن ينسحب الإسرائيليون من لبنان في مدة أقصاها ١٢ أسبوعاً من توقيع الاتفاق، بشرط أن تنسحب القوات السورية والفلسطينية أيضاً من أنحاء لبنان، وتضمن الاتفاق أيضاً التزام لبنان بالموافقة على تكوين حزام أمني إسرائيلي في الجنوب اللبناني، مكوناً من قوات إسرائيلية ولبنانية مشتركة.

وقد وافق البرلمان اللبناني على تلك الاتفاقية بالأغلبية، لكن الاتفاقية لم تترتب عليها أية آثار، إلا العار الذي لحق بالحكومة اللبنانية نتيجة التوقيع عليها، حيث امتنعت قوات (إسرائيل) عن الانسحاب، بعد امتناع قوات سورية عن الخروج من لبنان! ولكن الاتفاق مع ذلك ظلت أهم بنوده من الطرف اللبناني

قائمة عمليّاً، وهي البنود التي تقرر التزام الحَكومة اللبنانية بالحياد «التام»، فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية.

* * *

المحطة الخامسة

مشروع إعلان الدولة الفلسطينية

بعد حرب ١٩٨٢، وإخراج المقاومة الفلسطينية من لبنان بعد خروجها من الأردن عام ١٩٧٠؛ ظل اليهود يطاردون الفلسطينيين حتى في الشتات، فقد عبر الطيران الإسرائيلي الأجواء إلى تونس في عام ١٩٨٥ ليضرب مواقع للمقاتلين الفلسطينيين، على الرغم من بُعد المسافة بين خطوط التماس، وكان نتيجة القصف ٦٨ قتيلاً، وقد كان مقر عرفات هو المقصود. واغتال جهاز المخابرات الإسرائيلي (الموساد) عدداً من القيادات الفلسطينية التي ظلت وفية لقضية المواجهة ضد اليهود، فاغتيل خليل الوزير (أبو جهاد) وصلاح خلف (أبو إياد) في تونس، وهذا ما كان يعني أن حالة الحرب كانت على أشدها بين اليهود والفلسطينيين.

ومع ذلك وفي المدة ما بين ١٩٨٦و ١٩٨٨م، بدأت منظمة «التحرير» الفلسطينية تنشط بدورها في إجراء اتصالات مع عناصر إسرائيلية، تمهيداً للدخول في حوار «سلمي» مع الدولة اليهودية، وذلك بعد قرار صدر عن المجلس الوطني

الفلسطيني في دورته عام ١٩٨٦م، يدعو فيه اللجنة التنفيذية لمنظمة «التحرير» إلى وضع خطط بفتح الاتصال المباشر مع دوائر يهودية وإسرائيلية.

وكانت الإشارات قد بدأت تدل على توجه رئيس المنظمة السابق (ياسر عرفات) إلى الاعتراف بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، الذي يدعو إلى اعتراف الفلسطينيين والعرب بدولة (إسرائيل) بحدود ما قبل حرب ١٩٦٧م، وكان العرب جميعاً قبل ذلك يكادون يطبقون «علناً» على رفض هذا القرار كونه (كان) يعني التنازل مقدماً عن ثلثي أرض فلسطين، بل كان ياسر عرفات يقول ويكرر أنه يقبل أن تقطع يده على أن يقبل بالقرار ٢٤٢! ولكن عرفات عاد وقبل بالقرار، وأصبح يعده أثمن ورقة في يده! ولكن قبوله وقتها كان له وقعه وصداه (المؤقت). وحتى يغطي على هذا التراجع المخيف، فقد أوعز إلى المجلس الوطني الفلسطيني بأن يعلن في دورته التاسعة عشرة عن قيام (دولة فلسطين المستقلة)! ثم خطت منظمة (التحرير) خطوة «سلمية» أخرى، حينما ذهب رئيسها إلى جنيف، وأعلن أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٣ ديسمبر ١٩٨٨ ما يلي:

١- أنه على استعداد للتفاوض مع (إسرائيل).

٢- تتعهد المنظمة أن «تتعايش» بسلام مع (إسرائيل) وأن تحترم «حقها» في العيش بسلام ضمن حدود «آمنة» و«معترف بها».

٣- أن المنظمة تدين أعمال «العنف» الفردي والجماعي وإرهاب الدولة، ولن تلجأ إلى شيء من ذلك!

ولقد كانت هذه (التوبة) المعلنة كافية لأن تكفر عن الرموز الفلسطينية العلمانية

أمام الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل كل ما اقترفته أيادي الفدائيين الفلسطينيين والمجاهدين وأبطال الحجارة من «إساءات» في حق اليهود «المظلومين»! وقد قرَّت أعينُ هؤلاء اليهود وأعوانهم بما قال عرفات، حتى إن (جورج شولتز) وزير الخارجية الأمريكي في ذلك الوقت علق على خطاب عرفات قائلاً:

«إنه انتصار باهر، يدل على أن اللاءات الثلاث العربية الشهيرة في مؤتمر الخرطوم ١٩٦٧م، تحولت في جنيف لتصبح (نعم).. ثلاث مرات أيضاً»!!

* * *

المحطة السادسة

مؤتمر مدريد عام (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)

كان المجلس المركزي الفلسطيني قد وافق على تكليف ياسر عرفات برئاسة «الدولة الفلسطينية المستقلة» الشكلية التي أعلنها في شهر أبريل (نيسان) من عام ١٩٨٩ . وبناء على هذا التكليف، أعلن عرفات في أول عام ١٩٩٠ عن نيته إجراء مفاوضات سلام مع القادة الإسرائيليين بمباركة أمريكية، وكان ذلك قبيل اندلاع حرب الخليج الثانية بعد غزو العراق للكويت، لكن الولايات المتحدة عادت ساخطة على الفلسطينيين بسبب عملية فدائية قامت بها إحدى الفصائل الفلسطينية التي كانت على علاقة بالمنظمة. وبعد إعلان القيادات الفلسطينية تأييد العراق في غزوه الكويت، وبعد أن توقفت الحرب؛ وفي يوم ٦ مارس ١٩٩١م، وهو يوم الاحتفال بالنصر الأمريكي على العراق؛ ألقى الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش (الأب) خطاباً أعلن فيه أن الولايات المتحدة الأمريكية عازمة وبحزم على تسوية الصراع العربي الإسرائيلي[1] ضمن خطته لإنشاء (النظام العالمي الجديد)

---

(١) على عادة رؤساء أمريكا المتأخرين في اللعب بورقات القضية الفلسطينية، كلما أرادوا دخول مراحل مفصلية جديدة تتعلق بالمنطقة، وهو نفس ما فعله (جورج بوش) الابن، عندما=

الذي تنفرد أمريكا فيه بالقطبية الدولية بعد سقوط الاتحاد السوفييتي. وقد بدأ (جيمس بيكر) وزير الخارجية الأمريكي وقتها جولات مكوكية لتهيئة الأوضاع لعملية سلمية جديدة تتناسب مع ظروف الهوان الجديدة، وكان المقرر من البداية أن يعقد مؤتمر دولي يكون مجرد واجهة علنية عامة لمحادثات ثنائية منفصلة بين كل دولة عربية والدولة اليهودية. أما منظمة التحرير المعنية أصلاً بموضوع القضية الفلسطينية والصراع مع اليهود؛ فقد تقرر استبعادها لموقفها في حرب الخليج، على أن يكون البديل عنها وفد من فلسطينيي الداخل الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية، وليس من منظمة التحرير، وعلى أن يكون ذلك الوفد «العربي الإسرائيلي» أيضاً جزءاً من الوفد الأردني في المؤتمر!

وتقرر أن تكون العاصمة الإسبانية (مدريد) المقر الرسمي لانعقاد ذلك المؤتمر (الواجهة)، ثم تجري بعد ذلك المفاوضات في مسارات ثنائية بين كل طرف عربي على حدة وبين الطرف اليهودي. وعقِد المؤتمر في ٣٠ أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٩١ في مدريد، وكان اختيار الزمان والمكان لا يخلو من إيحاءات ورموز زمانية ومكانية لم تكن خافية؛ حيث تزامن عقد ذلك المؤتمر في إسبانيا (الأندلس سابقاً) ليوافق ذكرى مرور ٥٠٠ عام على سقوط غرناطة، وخروج المسلمين من إسبانيا!

وقد تجسد الضعف - بل الذل - العربي في هذا المؤتمر، حيث صال إسحاق شامير رئيس وزراء (إسرائيل) الأسبق وجال، ولوَّح بالتوراة وآياتها، وذكَّر بالتاريخ ودروسه، وشرَّق وغرَّب باسم اليهودية وأمجادها وآمالها وآلامها في

=طرح مشروع (خارطة الطريق) قبل غزو العراق، ومؤتمر أنابوليس في مارس عام ٢٠٠٧م في أجواء تحرش بإيران.

القديم والحديث، وكان هو «الزعيم» الوحيد من أطراف الصراع الذي حضر بنفسه، ولم يُنِب أحداً عنه، وكان قد أصر على شروط لا تقبل أنصاف الحلول قبل التفاوض في أي شيء، وكأنما أراد أن يذكِّر بهذه الشروط أن الجلوس على مائدة المفاوضات لا يعني النِّدِّية أو التكافؤ بين الأطراف؛ بل أراد شامير أن يذل العرب والمسلمين في شخص الفلسطينيين؛ فاشترط هذه الشروط:

(١) لا يسمح بمشاركة أي فلسطيني عضو في المجلس الوطني الفلسطيني (البرلمان) في المؤتمر.

(٢) مجرد ذِكْر منظمة التحرير في المؤتمر يعني انسحاب اليهود.

(٣) الإشارة لأي اعتزاز بالانتماء للكفاح الفلسطيني، يعني أن المؤتمر في حكم الملغي، وسينسحب هو ووفده منه! وكاد يحدث بالفعل ما حذر منه شامير، إذ أقدم أحد أعضاء الوفد الفلسطيني وهو (صائب عريقات) على وضع الكوفية الفلسطينية المشهورة على رأسه في أثناء الاجتماع، فاحتج شامير واحتد، وطلب إزالة هذه «المخالفة» فوراً!

فبأي روح يا ترى، وبأي نفسية كانت تجري المفاوضات «السلمية» مع هذه الشخصيات (العدوانية) في تركيبها وتكوينها وتفكيرها واعتقادها وأحلامها..؟!

المهم أن المؤتمر انعقد، وكأنه تظاهرة تحتفي بهوان أمة لم تجد من يتكلم باسمها أو يدافع عن كرامتها ومقدساتها، وكان من المفارقات العجيبة بعد انتهاء المؤتمر أن تُختار المرأة النصرانية حاملة الجنسية الإسرائيلية (حنان عشراوي) لتتكلم باسم

القضية الفلسطينية . . . العربية الإسلامية!

* نتائج مؤتمر مدريد :

كان مؤتمر مدريد عبارة عن «حفلة» في شكل مؤتمر، لا يملك الحضورُ فيها صلاحية مناقشة المشكلات ولا إيجاد الحلول، فالمؤتمر كان افتتاحاً لدعوة الدول العربية التي كانت تسمى (دول الطوق) المحيطة بالكيان الصهيوني، إلى بدء محادثات «ثنائية» بين كل منها وبين الدولة العبرية، واشتمل المؤتمر أيضاً على دعوة الفلسطينيين للتشاور بشأن إنشاء حكم ذاتي مرحلي لهم، مدته خمس سنوات، تتبعه مفاوضات (الحل النهائي) للقضية الفلسطينية، وقد فتح ذلك المؤتمر الطريق أمام اتصالات ثنائية بين الكيان الصهيوني من جهة، وبين الأطراف العربية التي دُعيت للمؤتمر من جهة أخرى، وهي : سورية ولبنان والأردن وفلسطين، وهذا ما تحقق بالفعل إذ كانت محطات (قطار السلام) التالية لذلك المؤتمر، منطلقةً من تلك المحطة المركزية (الجماعية) في مدريد!

وكان من النتائج الخطيرة لذلك المؤتمر أن انتقل العرب المشاركون فيه إلى أطراف في أهزولة السلام، بكل ما تعنيه اتفاقياتها وتفاعلاتها من استسلام، واعتراف ضمني أو رسمي بحق (إسرائيل) في الوجود دولة على أرض فلسطين، وقد شهد ذلك المؤتمر أيضاً بداية التحاق الفلسطينيين بركب العملية السلمية في مساراتها الانفرادية السرية.

* * *

المحطة السابعة

محادثات المسارات المتعددة في واشنطن

بعد الانتهاء من مؤتمر مدريد، وبعد جمع العرب (الرسميين) باليهود المحتلين تحت سقف واحد؛ اختيرت واشنطن لتكون مقرّاً لاجتماعات مسارات التفاوض الثنائية، لينفرد اليهود بالأطراف العربية المعنية كلاً على حدة ـ كما تقرر في مدريد ـ ودارت المحادثات على مسارات منفصلة كما هو متفق عليه، أو كما أرادت (إسرائيل)؛ فقد كانت تخطط لإضاعة الوقت في هذه المفاوضات لتشتيت جهود العرب والاستفراد بكل طرف، لكي تستثمر الوقت لصالحها بتنفيذ برامج ومخططات تحتاج إلى تغطية، وقد ظهرت هذه النية بعد ذلك على لسان (شامير) الذي قال: «كنت أريد للمفاوضات في واشنطن أن تمتد عشر سنوات، حتى نستكمل خطط الاستيطان، وحتى لا تبقى أرض فلسطينية يتفاوض عليها. . .»!! نعم أليسوا يهوداً؟!

لقد حرص هؤلاء الأعداء على إضاعة الوقت فعلاً، حتى إن بعض (القضايا) التي نوقشت بين الوفد الإسرائيلي والأردني مثلاً، كان منها: التعاون من أجل

مقاومة توالد البعوض في وادي الأردن! وكان منها ضرورة التنسيق للتوصل إلى حل المشكلة [لعلها: مشكلة] الحمام البري الذي يطير من الأراضي الأردنية ليتغذى على الغلال في الصوامع الإسرائيلية!!

أما القضايا الجادة على كل المسارات فكانت تؤجل باستمرار، وكانت وفود اليهود تردد دائماً قناعتها بأن من أصول التفاوض الصحيح: حل المشكلات الصغيرة أولاً ثم التفرغ للمشكلات الكبيرة. ومع كل هذا، فقد كان المفاوض العربي والفلسطيني يشعر في نفسه بالهوان، بغض النظر عن القضايا التي تناقش. يعبر عن ذلك (د. حيدر عبد الشافي) رئيس الوفد الفلسطيني آنذاك بقوله: «نحن وفد منقسم على نفسه، وفي الحقيقة فنحن أربعة عشر عضواً فلسطينياً، وكل عضو فينا وفد مستقل، وكل واحد منا يمثل نفسه، وله اتصالاته وله ميادينه»!! وكان من الطبيعي مع كل هذا أن تكون نتائج مسارات واشنطن.. الفشل!!



المحطة الثامنة

اتفاقيات أوسلو عام (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م)

بعد فشل محادثات المسارات المتعددة في واشنطن، اتجهت الأنظار إلى (أوسلو) عاصمة النرويج، وكان ذلك عقب ظهور عدد من المستجدات على الساحة العربية والدولية، منها:

(١) انتقال رئاسة الوزراء في (إسرائيل) إلى حزب العمل «المتساهل» برئاسة (إسحاق رابين) بعد سقوط (إسحاق شامير) زعيم حزب الليكود «المتشدد»، كما كان يحلو للزعماء العرب إشاعة ذلك، مع أن أكثر حروب اليهود ضد العرب كانت تحت زعامة حكومات عمالية.

(٢) أن منظمة «التحرير» ظهرت ـ من خلال محادثات واشنطن ـ مستعدة نفسياً وعملياً لإعطاء كل شيء مقابل الاعتراف بها، وأنها سوف ترحب بأي تعاون من شأنه أن لا ينقل الوصاية على القضية الفلسطينية من يد الفلسطينيين العلمانيين إلى أيدي الفلسطينيين الإسلاميين، في حماس وغيرها.

(٣) حرْصُ كل أجهزة المخابرات ومراكز الدراسات في إسرائيل وغيرها،

على إظهار وإبراز أن هناك قوة إسلامية عارمة يمكن أن تكتسح أكثر من ساحة عربية ومن ضمنها فلسطين، في ظل التشرذم والفشل العربي، وأن تلك الموجة الإسلامية يمكن لها أن تقفز إلى واجهة الأحداث ليرى اليهود أنفسهم وجهاً لوجه أمام مبارز جديد لم يتعودوا على منازلته. وقد عبر عن هذا التخوف أحد الوزراء في حكومة رابين عندما قال: «إن الحركة الإسلامية ستتصاعد، وستؤدي إلى تقوية التيار الديني في (إسرائيل) نفسها، وأستطيع أن أقول: إن المتشددين الإسلاميين والمتشددين اليهود سيلتقون في ساحة المواجهة هنا على أرض فلسطين، وعندها سيخرج الأمر من أيدينا تماماً»!

(٤) وكان (رابين) يرى لأجل ذلك التخوف أنه لا مانع من الاعتراف بالمنظمة بعد اعترافها بـ(إسرائيل) وبحقها في حياة آمنة ضمن حدود معترف بها، وكان في ذلك مخالفاً لسلفه (شامير)، وقد سوَّغ وجهة نظره بقوله: «إن المنظمة إذا وضعت بصمتها على ورقة الاستسلام، فلن يستطيع أحد أن يزايد على أصحاب الشأن»!
[الجملة غير مفهومة تحتاج إلى توضيح، ولعلها «وقَّعت» بدلا من «وضعت»]

وبدأ الفلسطينيون عبر قنوات اتصال سرية في التفاوض مع الإسرائيليين لإبرام اتفاق (منفرد)، مكررة «الخطأ التاريخي» الذي عابته على الرئيس السادات في صلحه المنفرد! وأثمرت الاتصالات السرية الوصولَ إلى اتفاق مبدئي أطلق عليه: (غزة وأريحا أولاً)، وكان المفاوضون قد اتفقوا في أوسلو على ألا يكرروا «الخطأ» الذي حدث في واشنطن من الوفد الفلسطيني، وهو المطالبة بالبدء بالموضوعات الصعبة الرئيسة مثل: حق تقرير المصير، والمستوطنات، ومستقبل القدس. واختاروا أن يكون البدء بأمور عملية تقبل التنفيذ، ووقع الاختيار على

(غزة وأريحا أولاً) بمعنى تمكين الفلسطينيين من حكم هاتين المنطقتين حكماً ذاتياً، وكانت هذه مبادرة إسرائيلية صرفة، صادفت هوىً لدى القيادة الفلسطينية، وقد توصل إليها الطرفان دون شراكة من أي طرف ثالث.

وقد أراد الإسرائيليون بهذه الاتفاقية أن يضربوا عدداً من العصافير بحجر واحد في هذه المرحلة، وذلك على ما يلي:

(١) التخلص من قطاع غزة المزدحم والمزعج، والمليء بأسباب التوتر الأمني والعلل الاقتصادية والكثافة السكانية العربية.

(٢) إرضاء غرور القيادة الفلسطينية المتطلعة إلى زعامة وهمية على دولة غير واقعية، لن تفيد الشعب الفلسطيني، ولن تضر «الشعب» الإسرائيلي.

(٣) إيهام العالم بعدالة الصفقة اليهودية في آخر فصول القضية الفلسطينية.

(٤) عزل القوى العربية غير الراغبة في السلام - إن وجدت - بإعطاء البرهان على أن «أصحاب القضية» قد ألقوا البندقية.

(٥) احتواء التيار الإسلامي المتصاعد في غزة على يد الشرطة الفلسطينية بعد أن عجزت الشرطة الإسرائيلية عن القضاء عليه.

وبعد خمس جولات من المباحثات في أوسلو، تُوصِّل في (٨/ ٥/ ١٩٩٣م) إلى ما يسمى وقتها بـ (اتفاق إعلان المبادئ) المتعلق بمنح الفلسطينيين حكماً ذاتياً في غزة وأريحا، وكان (شيمون بيريز) متحمساً للإسراع في إبرام ذلك الاتفاق الذي تفتقت عنه قريحته، فقد كان يراه فرصة تاريخية لا تعوض في مثل ذلك الظرف،

الذي كان يقتضي الاعتراف (بالعدو) الذي لم يعد عدواً وهو (منظمة التحرير)؛ لأن البديل هو كابوس لا يمكن تصوره، ولذلك قال: «إن البديل الوحيد لمنظمة التحرير إذا تجاوزناها هو (حماس)، وحماس لن تعترف أبداً بإمكانية السلام معنا..»!

وقد تمخضت اتصالات القنوات السرية عن ميلاد ما عرف بـ (اتفاقية أوسلو)، وهذه أهم بنودها:

- إقامة سلطة حكومة ذاتية انتقالية فلسطينية، لها مجلس تشريعي في الضفة الغربية وقطاع غزة، لمدة انتقالية لا تتجاوز خمس سنوات.

- خلال السنوات الخمس، تجرى مفاوضات بين الجانبين بهدف التوصل إلى تسوية دائمة على أساس قراري مجلس الأمن (٢٤٢) و(٣٣٨).

- تبدأ المدة الانتقالية بعد انسحاب القوات الإسرائيلية من قطاع غزة ومنطقة أريحا.

- القضايا الأساسية في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي (الذي كان يسمى الصراع العربي الإسرائيلي)، وهي: (القدس، واللاجئون، والمستوطنات، والترتيبات الأمنية، والحدود، والعلاقات الثنائية)؛ كل هذه القضايا يُتفاوض بشأنها للوصول إلى (حل نهائي) للصراع، وهي القضايا التي ظل اليهود يؤجلونها حتى العام ٢٠٠٠، في مباحثات (كامب ديفيد الثانية) كما سيأتي.

- لضمان «الأمن العام» الذي هو في حقيقته أمن اليهود الخاص في الضفة الغربية والقطاع؛ نصت الاتفاقية على إنشاء قوة شرطة فلسطينية من المقاتلين

«السابقين»، تقوم بمهمة «الدفاع» ضد التهديدات الداخلية، بينما تتفرغ قوات الدولة العبرية، لمواجهة «التهديدات» الخارجية!!

وما كان لاتفاق أوسلو أن يخرج إلى الوجود، إلا بعد تأجيل كل القضايا الأساسية وهي: (القدس)، (الحدود)، (المستوطنات)، و(اللاجئون)، وغيرها من القضايا التي أطلق عليها (قضايا الحل النهائي). وعلى الرغم من أن الاتفاق كان أسوأ مما كان ينتظره أكثر الناس تشاؤماً؛ حيث إنه لا يحقق الحد الأدنى من الثوابت الفلسطينية، إلا أن ياسر عرفات كان يحب أن يطلق عليه: (سلام الشجعان).

وفي مقابل قبول بعض العرب الاتفاقَ على مضض بسبب إجحافه بالفلسطينيين في أرضهم، فإن الإسرائيليين عمهم الفرح به، حتى إن أحد الوزراء الإسرائيليين وهو (يوسي ساريد) علق عليه قائلاً: «إن إسرائيل اليوم خلقت من جديد، فمنذ إنشائها لم تكن الدولة شرعية في المنطقة التي قامت فيها، واليوم (١٣ سبتمبر ١٩٩٣م) اكتسبت إسرائيل شرعية الاعتراف بها»!!

هذا على مستوى العارفين بالأمور من الإسرائيليين. أما قطاعات الشعب التي ساءها أن ترى (عرفات) داخل أرض الميعاد مرة أخرى؛ فقد هالهم هذا التغيير، ولكن رابين طمأنهم وهدأ من روعهم، وخاطبهم ولّما يجفَّ مداد الاتفاق قائلاً: «إنه لن يكون هناك انسحاب إسرائيلي، ولكن: إعادة انتشار، و(السلطة) للفلسطينيين سوف تكون تحت سيطرة (الدولة الإسرائيلية). وحتى الأرض، فليس هناك اتفاق بشأنها، ولكن بشأن البشر الذين يسكنون عليها. أما الأموال التي ستأتي لتلك السلطة الفلسطينية؛ فلن تصل إلى أيديها مباشرة، بل ستمر عبر قنوات دولية تضمن سلامة مصارفها»! وهذا هو تماماً ما حدث، بل حدث ما هو أسوأ منه!

ثم بدأ تنفيذ بعض بنود الاتفاق، واستُقدمت أعداد من «المقاتلين» الفلسطينيين السابقين الذين كانوا قد تفرقوا في عدد من البلدان العربية، بعد خروجهم من لبنان إلى تونس وغيرها، تتكوّن منهم كتائب شرطة لمكافحة «الشغب»، أو بالأحرى: مكافحة «الشعب» إذا أراد أن ينتفض مرة أخرى.

ومع كل هذا التنازل، فإن الطرف اليهودي كان يتعامل مع الطرف الفلسطيني بالازدراء كله، والمكر والخداع كله، وكعادة اليهود في التملص من العهود، فإنهم لم يصبروا على (اتفاق أوسلو) على الرغم من حيفه وجوره، وعادوا إلى التمثيلية المكرورة وهي (تعدد فهم النص)، تلك التمثيلية التي درجوا على اللجوء إليها كلما أرادوا ممارسة هوايتهم التاريخية، وهي: التحريف والتزييف، فيقولون: النص هكذا، ولكننا نفهم منه كذا.. وأنتم تفهمون منه كذا. وبهذا في كل مرة يتخلصون من أي التزام، ويتبرؤون من كل مسؤولية؛ مصداقاً لقول الله - تعالى -: **﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾** [البقرة: ١٠٠]، لقد قال رابين قبل مصرعه: «إنني اكتشفت أن هناك قراءتين لاتفاق أوسلو: قراءة فلسطينية وقراءة إسرائيلية، ونحن أمام تفسيرات مختلفة لقضية كنت أظنها واضحة في الاتفاق»، وقال: «إن فجوة الاتفاق بيننا وبين عرفات واسعة»!

بمثل هذه التصريحات، وفي ظل تلك المواقف التي توجهها الرغبة في التلاعب وإضاعة الوقت، كانت تجري فصول العملية السلمية، فما كان يفهمه (شامير) من قواعد اللعبة، يمكن أن يختلف غداً عما فهمه (بيريز)، وما كان مسلَّماً

به عند رابين، يمكن أن ينقلب على أعقابه في مفهوم (نيتنياهو)! وما تعاهدت عليه حكومة (الليكود) اليوم، ليس ملزماً لحكومة العمل غداً.

وهكذا كانت تتوالى الفصول في عملية السلام المهزول نقضاً للوعود، ونكثاً للعهود، منذ «مناحيم بجين»، وحتى «إيهود ألمرت».

وبهذا كان يُتوسع في بناء المستوطنات، كلما أهدِر الوقت في انتظار نتائج المفاوضات، وبهذا أيضاً صمم اليهود على الانتهاء من أمر (مصير القدس) قبل أن يأتي موعد التفاوض بشأنها، وبهذا كذلك نقِلت السفارة الأمريكية إليها، ليمثل هذا أرضية دولية للاعتراف بها عاصمة «موحدة» و«أبدية» للدولة اليهودية، كما قال زعماء اليهود منذ احتلوها.

وقد أصبحت اتفاقية أوسلو محطة فارقة، تمثل خطراً أكبر مما كان في مؤتمر مدريد الذي أوصل إليها، وذلك للاعتبارات التالية:

* أوجد اتفاق أوسلو «شرعية» جديدة للعملية التفاوضية، كان اليهود في أمسِّ الحاجة إليها، وهي (شرعية الاتفاقات الثنائية) بدلاً من (شرعية القرارات الدولية)، وهو ما أسبغ وضعية «مقبولة» عربياً لاتفاق (وادي عربة) فيما بعد بين الأردن والكيان الصهيوني.

* بينما كانت تهمة التفريط في الحقوق الفلسطينية تتجه نحو الأطراف التي قبلت بالتنازل التاريخي عن حقوق الشعب الفلسطيني بقبولها بقرارات التقسيم والهدنة (٢٤٢) و(٣٣٨)؛ أعفت أوسلو الأطراف المتنازلة من هذه التهمة، أو جعلتها أمراً عاديّاً على أقل تقدير، عندما قبلت وهي الممثل «الشرعي» و«الوحيد»

للفلسطينيين، تلك القرارات المضيِّعة للحقوق التاريخية للشعب الفلسطيني، لا؛ بل سارت في طريق التنازل عما تبقى من حقوق، من خلال مسلسلات التنازلات التي تبعت (أوسلو) كما أوضحت تطورات الأحداث بعدها.

* كان (اتفاق القاهرة) الذي أُطلق عليه (أوسلو٢)، والمبرم بعد اتفاقية أوسلو، في ٤ مايو (آيار) ١٩٩٤؛ خطوة جديدة نحو الأسوأ في مسيرة الاستسلام لليهود، حيث أزال هذا الاتفاق وصف (الاحتلال) عن المغتصب اليهودي، حتى للأراضي التي لا تزال بحكم القرارات الدولية أراضي محتلة، وهو ما جعل ذلك المحتل-في النظر الرسمي العربي-كأنه شرطة حراسة خارجية لشرطة حماية داخلية في سجن كبير يطلق عليه (أراضي السلطة الفلسطينية)، كما أسبغ اتفاق القاهرة «شرعية» عربية على المبادرة «الفردية» الفلسطينية التي أثمرت ميلاد أوسلو.

* على عادة اليهود، من صفع المستسلمين صفعات مهينة كلما أقبلوا على مزيد من الخنوع له؛ جاءت مجزرة المسجد الإبراهيمي صدمة مروعة للمشغوفين والمشغولين بتدشين السلام «الدائم» و«الشامل» و«القائم على العدل» مع أعداء الأمة الإسلامية، بل أعداء البشرية، حيث أقدم مستوطن يهودي-وُصِف وقتها بالمعتوه وهو (باروخ جولد شتاين)- بإضافة حلقة جديدة في سجل المسلسل الإرهابي اليهودي المتواصل على أرض فلسطين، بأن أقدم ذلك الإرهابي على إطلاق النار على المصلين في ذلك المسجد في أثناء صلاة الفجر، فقتل ٢٩ مصلياً، وجرح ١٥٠ آخرين، ثم قتل نفسه، ومع ذلك استمرت عملية (السلام) مع اليهود!

* أسس اتفاق أوسلو بداية صراع فلسطيني فلسطيني، بدلاً من الصراع الذي كان صراعاً عربيّاً إسرائيليّاً، ثم فلسطينيّاً إسرائيليّاً، وذلك باشتراط الإسرائيليين على موقِّعي الاتفاق أن يضمنوا أمن (دولة إسرائيل) من «أعدائها» الفلسطينيين، الذين تحولوا فيما بعد إلى (إرهابيين) وانقلابيين!

* جسَّد هذا الاتفاق حقيقة اتفقت عليها الأطراف (الرباعية) لعملية السلام، وهي أنه لا تسوية للقضية الفلسطينية إلا بالشروط الإسرائيلية، ولهذا كان قبول الدول العربية - لقبول منظمة «التحرير» الفلسطينية لهذه الشروط - استجابة مجانيّةً للضغوط اليهودية.

* مجمل بنود اتفاقية أوسلو أوصلت إلى نتيجة مفادها: الإبقاء على الاحتلال اليهودي، بل «السيادة» اليهودية، على فلسطين كلها، بما فيها قطاع غزة وأريحا اللتين اتفِق بشأنهما؛ حيث إن الانسحاب منهما كان انتقالاً من الأماكن الآهلة بالسكان وبالمقاومين والمنتفضين إلى أماكن أكثر أمناً، وتُركت مهمة مقاومة هؤلاء المقاومين إلى المقاتلين «السابقين» الفلسطينيين في منظمة التحرير.

* ربط اليهود انسحابهم من المناطق المحتلة بقدرة الشرطة الفلسطينية على ضبط الأمن فيها، ونجاحها في «مقاومة الإرهاب» الفلسطيني المهدد لأمن اليهود، فإذا لم تثبت تلك الشرطة جدارتها في ذلك؛ فإن الأبواب ستكون مشرعة لعودة الاحتلال في أي وقت، وهو ما تكرر كثيراً بعد اتفاق أوسلو، في عمليات اجتياح قطاع غزة وأراضي الضفة الغربية.

* أعفت الاتفاقية المحتل الإسرائيلي من تبعات رعاية الصحة والتعليم

وشؤون البلديات وتكاليفها، وغير ذلك من جوانب المسؤولية التي يفترض أن تقوم بها جهة الاحتلال بحسب «المواثيق الدولية»، وقد أراح ذلك قوى الاحتلال من مغبة الصدام مع الأهالي المقهورين الواقعين تحت وطأة الضغوط المعيشية المتزايدة.

* تُرك بحث القضايا المهمة المسماة بقضايا (الحل النهائي) للظروف الزمنية المرتبطة بمدى «جدية» السلطة الفلسطينية على الوفاء بمقتضيات اتفاقية أوسلو، وقد كان هذا أمراً مقصوداً، لتترك تلك القضايا تتآكل بعوامل التعرية السياسية والأمنية والعسكرية التي شكلت أدوات نحت، بل معاول هدم لهذه القضايا، مرحلة بعد مرحلة، فلاشك أن مشكلة اللاجئين ـ مثلاً ـ تختلف الآن عنها في الوقت الذي أبرمت فيه اتفاقية (أوسلو)، وكذا يقال في قضية القدس والحدود والمياه وغيرها، وهو ما جعل اليهود يجنون نتائج حروب كان من الممكن أن تكون طاحنة، في ظل أوضاع «سلام» آمنة!

* كان العرب يخوضون ويلعبون ويلهيهم الأمل بأن تكون أوسلو خطوة على خارطة طريق استعادة كل الحقوق المسلوبة، وفق قراري «الشرعية» الدولية (٢٤٢) و(٣٣٨)، جاهلين أو متجاهلين أن ذلك الاتفاق لم يكن سوى تنفيذ عملي للشروط اليهودية الهادفة إلى تصفية القضية الفلسطينية، عبر محطات «السلام» الإسرائيلية الأمريكية التي تنقلت بركابها من العرب والفلسطينيين ـ بطريقة منتظمة ـ من السيئ إلى الأسوأ.

* حولت الاتفاقية العدو اليهودي على أرض فلسطين، من صورة «الكيان

المغتصب» إلى صورة الكيان المحترم المعترف به، وبشرعية وجوده وحقه في الوجود، بل في الاحتلال!! في الوقت الذي حولت فيه (المقاومة) المعترف بها دولياً ضد الاحتلال إلى قوى (إرهاب) خارجة عن السلطة الشرعية، ومؤذية لـ«الدولة» الإسرائيلية التي نالت الاعتراف الدبلوماسي، والتعامل الرسمي.

ولا شك أن الذين يتساءلون (وماذا كان البديل لعملية السلام؟)، لا يستطيعون أن يقولوا: إن ما انبنى على (أوسلو) كان أفضل من بقاء الأوضاع على ما كانت عليه قبلها!

* وأخيراً: كانت اتفاقية أوسلو جسراً عبر من فوقه كل المنهزمين أمام الإرادة الصهيونية اليهودية الراغبة في فرض شروطها؛ حيث كان منطق كل المهرولين إلى بوابات الاستسلام هو: لن نكون ملكيين أكثر من الملك، ولن نكون أدرى بشعاب مكة من أهلها. ولهذا تتابع دخول الأطراف العربية بطرق علنية أو سرية في تلك العملية الاستسلامية.



المحطة التاسعة

اتفاق (وادي عربة)

بين الأردن و(إسرائيل) عام(١٤١٥هـ- ١٩٩٤م)

بعد إخراج المقاتلين الفلسطينيين من الأردن في مطلع السبعينيات؛ تطورت العلاقة بين الأردن والدولة الصهيونية، واستمرت هذه العلاقة في التطور والتحسن، حتى أثمرت التوصل إلى اتفاق «سلام دائم» بين البلدين، وُقع بين مدينتي (إيلات) و(العقبة) في شهر أكتوبر عام ١٩٩٤م، وأطلق عليه (اتفاق وادي عربة).

وكان هذا الاتفاق إحدى ثمرات تعدد المسارات التي أرساها مؤتمر مدريد عام ١٩٩١م، وقد عكس الاتفاق عملية مقايضة شبيهة بما حدث في عملية كامب ديفيد بين الكيان الصهيوني والنظام المصري في عهد الرئيس أنور السادات، حيث أعطت الدولة العبرية الدولة الأردنية ما عدّه الأردنيون حقوقاً مسلوبة، في مقابل التخلي عن أي مواجهة عسكرية مقبلة مع اليهود، مهما كانت الأسباب.

جاء الاتفاق نتيجة اتصالات سرية بين بلدين في «حالة حرب»، وقد تضمنت أهم بنوده: التزام البلدين (الأردن وإسرائيل) بالامتناع عن أي أعمال قتالية، وعدم

السماح باستعمال القوة أو التهديد بها انطلاقاً من أي من البلدين ضد الآخر، والسعي إلى منع «الإرهاب»، والالتزام بالتعاون عن طريق استبدال العمل لبناء الثقة بـ «الاستعداد» العسكري، وتضمن الاتفاق بنوداً تضمن التعاون في مجالات المياه والمواصلات والثقافة، وتطوير غور الأردن.

وأعقب اتفاق (وادي عربة) إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع العدو اليهودي. وفي خطوة لإثبات حسن النوايا، قام الملك عبد اللّٰه بن الحسين عاهل الأردن بزيارة رسمية للدولة العبرية في شهر أبريل (نيسان) عام (٢٠٠٠م)، وهو العام الذي اندلعت فيه انتفاضة الأقصى، بعد الزيارة الاقتحامية الاستفزازية التي قام بها الهالك (أرئيل شارون) لأرض المسجد الأقصى.

وقد استضاف الأردن في شهر يونيو (٢٠٠٣م) - بعد غزو العراق بشهرين - مؤتمر (قمة العقبة) الذي شارك فيها الرئيس الأمريكي جورج بوش ومجرم الحروب (أرئيل شارون)، والرئيس الفلسطيني محمود عباس الذي كان يشغل منصب رئيس وزراء السلطة الفلسطينية في ذلك الوقت، بينما ياسر عرفات في الحصار، ثم تطورت العلاقة بين الأردن «وإسرائيل» إلى درجة أكثر حميمية، عندما قام الملك عبد اللّٰه بزيارة «ودية» للمأفون شارون في مزرعته «الخاصة» في مدينة النقب في شهر أبريل (نيسان) من عام ٢٠٠٤م.

* * *

المحطة العاشرة

كامب ديفيد الثانية عام (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)

كعادة كل رئيس أمريكي في نهاية مدته الرئاسية، حاول الرئيس الأسبق (بيل كلينتون) أن يسجل اختراقاً في قضية الشرق الأوسط قبيل رحيله من البيت الأبيض في نهاية عام ٢٠٠٠ ميلادية، وقد بلغت الثقة ببيل كلينتون أن دعا إلى مؤتمر للتوصل إلى (الحل النهائي) للمشكلة التي استمرت لأكثر من نصف قرن، مؤملاً أن يدخل التاريخ قبل أن يخرج من البيت الأبيض، لهذا جمع في القصر الرئاسي في ضاحية (كامب ديفيد) بولاية ميرلاند الأمريكية، كلاً من الرئيس الفلسطيني الراحل (ياسر عرفات) مع رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق (إيهود باراك)، على أن يستمر التفاوض بينهما برعاية أمريكية، حتى يتوصلا إلى حل نهائي ودائم للقضية الفلسطينية.

ولعل أبرز ما يميز عملية السلام في تلك المحطة، أن جوهر الاختلاف فيها كان على لُب الصراع في القضية، وهو السيادة على الأراضي المقدسة في فلسطين، وبخاصة المسجد الأقصى، وهذا ما يعيدنا إلى التذكير بأن جوهر الصراع العربي

الإسرائيلي كان صراعاً عقائدياً في أساسه، وما يزال وسيظل كذلك، وإن كانت له أوجه أخرى سياسية واقتصادية وإستراتيجية. وهذه أبرز فعاليات تلك المساومات المسماة بالمفاوضات:

* كان الطرفان ـ الفلسطيني والإسرائيلي ـ قد توصلا إلى اتفاق في الرابع من أكتوبر عام ١٩٩٨، عُرِف باتفاق (واي ريفر)؛ يقضي بتكثيف التعاون من الأطراف الثلاثة (الفلسطينيين والإسرائيليين والأمريكيين) لإعادة انتشار القوات الإسرائيلية، وترتيب الإجراءات (الأمنية) بين تلك الأطراف، على أن يبدأ الفلسطينيون والإسرائيليون مفاوضات مباشرة (للحل النهائي) قبل الرابع من مايو ١٩٩٩م، لكن رئيس الوزراء الإسرائيلي في ذلك الوقت (إيهود باراك) رفض تنفيذ ما نص عليه اتفاق (واي ريفر).

* في أعقاب ذلك وجه الرئيس الأمريكي الأسبق الدعوة إلى الطرفين المتنازعين للاجتماع في كامب ديفيد، لعقد مفاوضات بشأن قضايا الحل النهائي، كان الغرض منها ـ كما ظهر بعد ذلك ـ استخراج موافقة رسمية من الفلسطينيين بالتنازل عن السيادة على القدس الشرقية وأرض المسجد الأقصى، مقابل (تنازلات إسرائيل).

* لما غلب على ظن كلينتون أن الفلسطينيين لن يتنازلوا عن السيادة على القدس القديمة، أو عن أرض المسجد الأقصى أو مبناه؛ طالب بإرجاء قضية المقدسات إلى عملية سلام تالية، والاكتفاء بحل المشكلات الأخرى، إلا أن الطرف الفلسطيني رفض ذلك، معللاً رفضه بأن إسرائيل سترفض حل مشكلة القدس الأصلية مستقبلاً إذا نجحت في حل المشكلات الفرعية.

* كان رفض عرفات، وما تبعه من رفض عريقات للتنازل عن السيادة على القدس الشرقية وأرض المسجد الأقصى داخلها؛ أمراً مغيظاً للإسرائيليين والأمريكيين معاً، ولهذا وُضع ياسر عرفات في دائرة الاستهداف من بعدها، حتى مات مسموماً؛ بحسب الفحوصات الفرنسية لجسده عند موته.

* أما خلفه (محمود عباس) وهو الطرف الفلسطيني الموقع على اتفاق أوسلو، والمدافع عنه والمستفيد منه؛ فإنه قد صُعِّد إلى صدارة المسؤولية، لتنازله الضمني عن القدس والأقصى، ضمن ما اشتهر بوثيقة (مازن ـ بيلين) التي أقر فيها أبو مازن ليوسي بلين وزير «العدل» الإسرائيلي الأسبق بالتنازل عن القدس عاصمة للدولة الفلسطينية المزمعة، مقابل تنازل الإسرائيليين لهم عن السيادة على قرية (أبوديس) المجاورة للقدس، بعد أن يطلقوا على هذه البلدة اسم (القدس) كما اقترح (شيمون بيريز) ويجعلوها عاصمة الدولة الفلسطينية!

* طالب اليهود ـ والأمريكيون معهم ـ من الفلسطينيين أن يتنازلوا عن ملكية ما تحت أرض المسجد الأقصى، لأن ما تحته هو المعبد اليهودي ـ كما ادعوا ـ وتركوا للفلسطينيين السيادة على المباني فوق الأرض، في تدرج خبيث يهدف إلى تحويل أرض المسجد الأقصى كلها إلى السيادة الإسرائيلية، إذا ما هُدم مبنى المسجد بفعل أي عوامل طبيعية أو صناعية.

* قال الإسرائيليون إنهم وافقوا في كامب ديفيد على حكم ذاتي للفلسطينيين تحت السيادة الإسرائيلية، في الأحياء الخارجية من ضواحي مدينة القدس الشرقية، وقد كان هدفهم إبعاد الفلسطينيين عن السيادة على القدس الشرقية نفسها التي

ما جاؤوها واحتلوها إلا لكي يبقوا عليها عاصمة موحدة للدولة العبرية.

* كانت مطالبة الرئيس الأمريكي (بيل كلينتون) بسيادة فلسطينية على مبنى المسجد الأقصى فوق الأرض، وسيادة إسرائيلية على «حائط المبكى» والأرض تحت مبنى المسجد الأقصى؛ شيئاً يؤكد تطابق النظرة الدينية بين اليهود وبين النصارى البروتستانت، في أحقية غير المسلمين من اليهود والنصارى بملكية أرض المسجد الأقصى، وحقهم في السيادة عليها، ولو كان فوقها مبنى إسلامي «مؤقت»، يُخطط الطرفان على أقدام وسوق لهدم أركانه وإزالة بنيانه فوق الأرض، ليبقى لهم ما تحت الأرض.

* كان رفض ياسر عرفات تلك المطالب أمراً مشكوراً يُذكر له، لكن الإعلام العربي العلماني لم يبرز ذلك على أنه كان السبب الأكبر في فشل مؤتمر كامب ديفيد، ولم يُظهر أن (سلام الشجعان) لم يكن إلا مجرد أوهام. وقد أدى فشل المؤتمر (سياسيّاً) إلى تدخل الهالك شارون عسكرياً لفرض الغرض الذي لأجله عُقد المؤتمر، وذلك بعد اقتحامه المتعمد لساحة المسجد الأقصى، مشعلاً بذلك الانتفاضة الشعبية الفلسطينية الثانية.

* أثبت ذلك المؤتمر أن (الراعي الأكبر) لعملية السلام ـ وهو الطرف الأمريكي ـ لم تكن له له أي رغبات أو صلاحيات تنافي ما يريده الإسرائيليون، ولهذا قال (شارل أندرلين) صاحب كتاب «الحل المحطم في كامب ديفيد ٢٠٠٠م»: إن الرئيس الأمريكي ووزيرة خارجيته (مادلين أولبرايت) كانا مجرد بيادق لعب بها باراك. وهذا صحيح، فقد تحدث (كلينتون) خلال أيام تلك المفاوضات بنفس

لسان (إيهود باراك) بعد إذن منه، وقد أدرك عرفات أن الرجلين يريدان توريطه فيما يمكن أن يتعرض به للقتل، مثلما حدث للسادات، وقال: «لو وقعت على التنازل فسوف يقتلني شعبي، بل يمكن أن يقتلني أخي موسى»!

* وعلى الرغم من أن المؤتمر قد فشل فشلاً ذريعاً، وأن ذلك الإخفاق قد حمَّله كل طرف للآخر؛ فإن مسارات أحداثه عبر أيام التفاوض، كشفت عن الحقيقة الكامنة وراء الحرب الكارثية الكبرى عام ١٩٦٧م (حرب النكسة)، التي ظهر جلياً أن هدفها الأهم كان هو السيطرة اليهودية الدائمة على القدس، وأن كل ما احتله اليهود معها إنما احتُفظ به للمقايضة والمناورة لغرض الاحتفاظ بالمدينة المقدسة على سبيل التأبيد، بعد تقديم التنازلات المؤقتة عما عداها على سبيل التأقيت. ولهذا قدَّم اليهود ما عدُّوه وعدَّه الأمريكان معهم «تنازلات مؤلمة»؛ لأجل تنازل الفلسطينيين عن السيادة على أرض المسجد الأقصى المبارك، ليكون تنازلهم في ذلك المؤتمر تنازلاً بالنيابة عن جميع الأنظمة العربية التي عدتهم الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، فإذا أخذ اليهود إقراراً «بالشرعية» على القدس الشرقية التي يعدونها منذ احتلوها (العاصمة الموحدة والأبدية للدولة الإسرائيلية) وإذا أخذوا إقراراً بـ(ملكية) أرض المسجد الأقصى؛ فكل ما دون ذلك عند اليهود مجرد تفاصيل يمكن التفاوض عليها، ثم التملص منها.



المحطة الحادية عشرة

المبادرة العربية للسلام (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)

بدأت هذه المبادرة (سعودية)، ثم تحولت إلى مبادرة عربية، بعدما وافقت معظم الحكومات العربية عليها في مؤتمر القمة المنعقد في بيروت في مارس عام ٢٠٠٢، وقد شهدت تلك المبادرة دفعة أخرى للواجهة من جانب مؤتمر القمة العربي المنعقد في أواخر مارس ٢٠٠٧.

وعلى الرغم من أن تلك المبادرة تدعو إلى تبادل العلاقات الدبلوماسية الكاملة مع الدولة العبرية؛ بعد انسحابها من جميع الأراضي العربية التي احتلتها (إسرائيل) عام ١٩٦٧، إلا أن اليهود لم يقبلوا بها، وعدَّتها وزيرة الخارجية الإسرائيلية «غير كافية» لبدء مفاوضات مباشرة مع حكومة دولتها، وقد اتهمت أوساط إسرائيلية جامعة الدول العربية، بالسعي إلى (بيع) تلك المبادرة لـ(إسرائيل)، وطالبت الولايات المتحدة الأمريكية القمة العربية المنعقد في دمشق عام ٢٠٠٨ بتحويل المبادرة العربية إلى عملية (حوار علني ومباشر) بين الدولة العبرية وأكبر عدد من الدول العربية. والظاهر أن هذا المطلب بدأ يلقى تجاوباً، حيث أدلى رئيس

الوزراء الصهيوني (إيهود أولمرت) بتصريح قبيل قمة دمشق قال فيه: «إسرائيل ترى إشارات أولية للتفاهم من قِبل العالم العربي، ومن بلدان لم تكن لدينا معها علاقات في السابق، بعد أن تفهمت أن دولة (إسرائيل) هي قوة لا يمكن تجاهل وجـودها، حـاضـراً أو مستقبلاً»!

وقد أخذت تلك المبادرة شكلها النهائي، بعد تبني قمة بيروت لها على الشكل التالي:

* مطالبة (إسرائيل) بالانسحاب الكامل من الأراضي العربية المحتلة، بما في ذلك الجولان السوري، وحتى خط الرابع من يونيو (حزيران) ١٩٦٧، والأراضي التي ما تزال محتلة في جنوب لبنان.

* المطالبة بـ«حل عادل» لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين؛ وفقاً لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ذي الرقم ١٩٤.

* المطالبة بقبول قيام دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة على الأراضي الفلسطينية التي احتلتها (إسرائيل) عام ١٩٦٧ في الضفة الغربية وقطاع غزة، على أن تكون عاصمتها القدس الشرقية.

وتعهدت القمة العربية من خلال تلك المبادرة للطرف الآخر إذا وافق على ذلك بما يلي:

* اعتبار «النزاع» العربي الإسرائيلي منتهياً، والدخول في اتفاقية سلام بين العرب وبين (إسرائيل) مع ضمان الأمن لكل دول المنطقة.

* إنشاء علاقات طبيعية مع (إسرائيل) في إطار هذا السلام الشامل، مع

ضمان رفض كل أشكال التوطين الفلسطيني الذي يتنافى والوضعَ الخارجي في البلدان العربية المضيفة.

* دعوة حكومة (إسرائيل) والإسرائيليين جميعاً، إلى قبول مبادرة السلام العربية؛ حماية لفرص السلام، وحقناً للدماء؛ بما يمكّن العرب و(إسرائيل) من العيش بسلام جنباً إلى جنب، ويوفر للأجيال القادمة مستقبلاً آمناً يسوده الرخاء والاستقرار!!

* * *

المحطة الثانية عشرة

«مؤتمر أنابوليس» (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م)

بعد مضي نحو ثماني سنوات على فشل كامب ديفيد الثانية عام ٢٠٠م، في الأيام الأخيرة للرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون؛ حاول الرئيس الأمريكي التالي له (جورج بوش الابن) في أيامه الأخيرة أيضاً أن يحقق اختراقاً في أزمة الشرق الأوسط يدخل به التاريخ قبل أن يخرج هو الآخر من البيت الأبيض؛ لهذا دعا ذلك الرئيس (جميع) الأطراف العربية كي يجتمع ممثلوها بالطرف الإسرائيلي؛ بغية الدخول بعد ذلك في مفاوضات إسرائيلية فلسطينية، تكون طريقاً إلى التوصل إلى (حل نهائي) للقضايا الكبرى المتعلقة بالأزمة والصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وقد جاء مؤتمر (أنا بوليس) على الطريقة الأمريكية (المهرجانية) لتسويق أفكار إسرائيلية بمساندة دولية. ولذلك ما إن انتهى ذلك المهرجان حتى عاد الأمر كما كان؛ فظل الاحتلال هو الاحتلال، والاغتصاب والاستيطان يتضاعفان، وعمليات القتل والتدمير مع الحصار والإفقار تزداد آثارها وتتنوع أشكالها، ومع كل هذا بقي اللاهون اللاهثون يتحدثون عن «السلام» خياراً وحيداً، لا بد أن تصل به العملية السلمية إلى محطتها الأخيرة.

في اجتماع أنا بوليس الذي عُقد في ٢٧ نوفمبر (كانون الثاني) ٢٠٠٧م؛ طالب الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش رؤساء الوفود العربية بالاعتراف بـ(إسرائيل) دولة «يهودية»، وطالب بتكوين لجنة من «طرفي» النزاع للبدء في التفاوض على أساس ذلك الاعتراف، وذلك في ظرف فلسطيني يشهد ما يشبه الإجماع الدولي والإقليمي والمحلي على حصار شعب غزة؛ عقاباً له على اختياره حركة حماس في الانتخابات النيابية. وقد بدا من المؤتمر أن مصير ذلك الحصار مرتبط وجوداً أو عدماً ببقاء حماس في السلطة؛ حيث عُدت تلك المنظمة المقاوِمة على ألسنة العديد من المتحدثين في المؤتمر حركةً إرهابية، ينبغي مكافحتها!

وقد كرر جورج بوش في (أنا بوليس) ٢٠٠٧م محاولة بيل كلينتون في (كامب ديفيد) ٢٠٠٠م؛ في الإصرار على التوصل إلى حل «تاريخي» لقضايا الحل النهائي، على الأقل بالتوصل إلى إعلان قيام الدولة الفلسطينية في الوقت الضائع، طمعاً في تحقيق اختراق يُذكر له في التاريخ أو يحسب لحزبه في الانتخابات.

ومع أن الأمريكيين كانوا قد وعدوا بألا يُعقد هذا المؤتمر إلا بعد التوصل إلى اتفاق أولي في وثيقة مشتركة بين طرفيْ النزاع، إلا أن الوقت داهمهم؛ فدعا الرئيس الأمريكي إلى عقد المؤتمر قبل التوصل إلى أية صيغة مشتركة مبدئية، وعلى الرغم من ذلك أصر جورج بوش على جمع العرب جميعاً تحت سقف واحد لتحقيق هدفين مغايرين لما يفترض أن المؤتمر عُقد من أجلهما، والهدفان أحدهما على المدى القريب، وهو: تكوين تحالف (أمريكي إسرائيلي عربي) ضد إيران؛ لاحتواء طموحاتها النووية والإقليمية، والآخر على المدى البعيد، وهو: تحديد الإطار الأمني لمشروع (الشرق الأوسط الجديد) الذي دعا جورج بوش الابن

إلى تنفيذه تحت الرعاية الأمريكية.

* لقد تلا الرئيس الأمريكي البيان المشترك للمؤتمر، مثنياً على «الشجاعة» التي أبداها الزعيمان: الإسرائيلي والفلسطيني. وكان أهم ما جاء في ذلك البيان باختصار:

- إن الطرفين قد توصلا إلى تفاهم مشترك، يدل على عزمهما وإصرارهما على وضع حد لسفك الدماء والمعاناة، وعقود الصراع بين الشعبين، وأيضاً على التصدي للإرهاب والتحريض.

- الموافقة على إطلاق مفاوضات ثنائية فوراً من أجل التوصل إلى معاهدة سلام تحل جميع القضايا العالقة دون استثناء قبل نهاية العام ٢٠٠٨.

- تقوم لجنة توجيه من الطرفين بوضع خطة عمل مشتركة، تجتمع بصورة مستمرة للإشراف على طواقم التفاوض.

- يقوم الطرفان فوراً بتنفيذ الالتزامات المترتبة على كل منهما بموجب خريطة الطريق(١)، ويتفق الطرفان على إيجاد آلية أمريكية إسرائيلية فلسطينية مشتركة

---

(١) قُدم مشروع «خارطة الطرق» قبيل غزو العراق، والمقصود منه التعريف بالمعالم التي ينبغي على الفلسطينيين والإسرائيليين السير على «هداها» في طريقهما إلى السلام الذي ينتهي بسلام دائم ودولة فلسطينية معترف بها و«قابلة للحياة»، واعتمد مشروع خارطة الطريق على رسالة الدعوة إلى مؤتمر مدريد، ومبدأ الأرض مقابل السلام، وقراري مجلس الأمن الدولي (٢٤٢) (٣٣٨)، إضافة إلى المبادرة العربية التي تبنتها القمة العربية في بيروت، وهي تشترط على منظمة «التحرير» أن تحارب «الإرهاب» الإسلامي الفلسطيني، حتى يمكن التوصل إلى السلام، وهذا هوالأساس الذي قامت عليه أوسلو أيضاً. وبهذا؛ ظلت تلك المبادرة تدور=

لمتابعة تطبيق خريطة الطريق، حتى يُتوصل إلى معاهدة سلام.

- إذا لم يتفق الطرفان حتى على التوصل لمعاهدة سلام في المدة المحددة؛ فإن عملية السلام المستقبلية ستكون خاضعة لخارطة الطريق.

* وفي مشاركته الرسمية أمام المؤتمر، استفتح رئيس الوزراء الإسرائيلي كلمته بقوله:

«جئت إليكم هذا اليوم من أورشليم القدس لأمد يداً من السلام بينكم وبين الفلسطينيين، وبين الدول العربية جمعاء... إننا نريد السلام، لكننا نطالب بوقف (الإرهاب) و(التحريض) و(الكراهية)، إننا جاهزون لاعتماد الحلول التوفيقية (المؤلمة) والمليئة بالمخاطر سعياً لتحقيق هذه التطلعات، لا شك أن الواقع الذي نشأ في منطقتنا عام ٦٧، سوف يتغيّر بصورة ملحوظة للغاية»!

* أما محمود عباس رئيس السلطة الفلسطينية، فقد قال في كلمته أمام المؤتمر:

- «إن طريق السلام هو طريق لا خيار غيره ولا رجعة فيه، وطريق التفاوض بشأنه ومن أجل إنجازه هو الطريق الصحيح».

- «لن تتكرر هذه الفرصة التي يوفرها اليوم الموقف العربي والإسلامي والدولي، والدعم الكاسح في الرأي العام في المجتمعين الفلسطيني والإسرائيلي».

= في الحلقة المفرغة التي دارت عليها أوسلو. وقد وضعت لها مراحل للتنفيذ، لكن كلاً من الفلسطينيين والإسرائيليين كانت لهم اعتراضات عليها.

- ولم ينسَ عباس أن يستعمل عبارة عرفات في نعت عملية السلام بوصفها الخاص عند المفاوض الفلسطيني، فقال: «لا يجب أن نضيع هذه الفرصة التي ربما لن تتكرر مرة أخرى، دعونا نصنع (سلام الشجعان) ونحميه من أجل مستقبل أطفالنا وأطفالكم»!

إن المتأمل في هذه الكلمات التي افتُتح بها مؤتمر (أنا بوليس)، يشعر كأن القوم قد بدؤوا للتو في عملية السلام الموعودة تلك، وكأن تلك العملية التي بدأت في كامب ديفيد الأولى لم يمضِ عليها نحو ثلاثين عاماً، مضت كلها في المساومات والتسويفات والمراوغات التي لم تقدم أي نتائج إيجابية إلا للطرف الإسرائيلي الذي نجح في تحويل أوقاتها إلى برامج عملية!

لقد تبين أن شرط النجاح المطلوب لتمكين الأطراف العربية والفلسطينية من الحصول على (أحلام السلام) إنما يكمن في أمر واحد لا ثاني له، وهو (أمن إسرائيل)! وقد عبّرت وزيرة الخارجية الإسرائيلية (إيفي ليفني) عن تلك الحقيقة بقولها في الكلمة التي ألقتها أمام المؤتمرين في (أنا بوليس): «الطريق لإقامة الدولة الفلسطينية، يمر عبر ضمان أمن دولة إسرائيل»!

لهذا كانت كلمات المشاركين في التحدث أمام المؤتمر ترتكز على أمرين: أمن الدولة الإسرائيلية «اليهودية»، ومكافحة جماعات المقاومة «الإرهابية»!

* لقد انفض اجتماع (الإجماع العربي) في أنا بوليس، عن نتائج كثيرة وخطيرة، على الرغم من ظاهره الاحتفالي «الكرنفالي»، ولم تكن كل تلك النتائج واضحة من الكلمات اللفظية أو الإجراءات الظاهرة العملية، وإنما كان

أكثرها خطورة تلك النتائج المستورة التي انكشفت من بين السطور، ومن أهم تلك النتائج:

- رشَحَت عن المؤتمر رغبة شبه متفق عليها بين الحضور، في عزل الإسلاميين عن القيام بأي دور في الواقع الفلسطيني، حيث لم يلتفت المؤتمرون إلى أن حركة حماس الإسلامية إنما جاءت باختيار حر مباشر على الطريقة التي يدَّعي الأمريكيون أنهم يغزون دول العالم لأجل تثبيتها والإقناع بها. وقد ظهر ذلك جليّاً في استعمال وصف (الإرهاب) صفة مفضلة ومفصلة على مقاس الجماعات الإسلامية الفلسطينية فقط، دون غيرها من جماعات الإرهاب الصهيوني بقسميه: اليهودي والنصراني.

- في مقابل كيل الذم والتهم للإسلاميين الفلسطينيين في المؤتمر؛ كان ذلك المؤتمر فرصة لهطول كلمات الثناء والمديح ووعود التسهيلات والمساعدات للعلمانيين الفلسطينيين المستعدين لكل أنواع «التفاهم» مع العدو اليهودي، وجاءت العروض لمحمود عباس بتقديم كل ما من شأنه أن يساعده في معركته المفتوحة والمفضوحة ضد منظمة حماس، التي انقلب هو عليها، زاعماً أنها هي التي انقلبت عليه.

- مثّل حضور العرب الجماعي لذلك المؤتمر تفويضاً وغطاء عربيّاً لكل ما أقدم عليه الرئيس الفلسطيني (محمود عباس) وزمرته الأمنية؛ كي يمارس حملته الاستئصالية للوجود الإسلامي الحر في فلسطين؛ تحت مباركة عربية رسمية، كما أن ذلك الحضور الجماعي من العرب أصبح تعبيراً عربيّاً مبكراً عن مسؤولية

جماعية عما ستتمخض عنه مفاوضات (أنا بوليس) من نتائج سيئة.

- أظهر المؤتمر العدوَّ اليهودي طرفاً «صانعاً للسلام» بالغرم، بعد استمرار جرائمه الخارجة عن كل حدود المقبول أو المعقول، كما أظهر ذلك المؤتمر الرئيس السفاح (جورج بوش) قاتل مئات الآلاف من المسلمين المدنيين والعسكريين في العراق وأفغانستان على أنه (رجل سلام)، يسعى إليه ويجمع الناس عليه، بل يضع له الخطط والبرامج والمؤتمرات!

- أملى الإسرائيليون رغبتهم وفرضوا إرادتهم على المؤتمر كعادتهم؛ فلم يعيروا اهتماماً للمبادرة العربية للسلام، كما لم يلقوا بالاً لأية دعوة لتحرك عالمي على شكل «مؤتمر دولي للسلام»، كما كان بعض العرب يلح في الطلب.

- الوثيقة الصادرة عن المؤتمر صيغت على عجل، وسُلقت سلقاً، وهي مع هذا لم تتضمن أية مطالبة بوقف البغي الإسرائيلي، أو معالجة آثار عدوانه في الاستيطان، أو في بناء الجدران، ولم تنص تلك الوثيقة على شيء ينبغي احترامه إلا (خريطة الطريق)، التي تقايض الدولة الفلسطينية بالقضاء على المقاومة الإسلامية التي أطلق عليها كل المتحدثين في المؤتمر - وعلى مرأى ومسمع من كل الوفود العربية - وصف (الإرهاب)!

- أضاف مؤتمر (أنا بوليس) مزيداً من الانقسام على الساحة الفلسطينية الداخلية، فبعد أن قسَّمت (أوسلو) الفلسطينيين إلى قسمين: قسم معترف بالكيان اليهودي وآخر غير معترف به؛ جاء مؤتمر أنا بوليس ليقسم الفلسطينيين إلى (مع) المقاومة أو (ضد) المقاومة! أو بِلغتِهم: (مع الإرهاب أم ضده)! وذلك استجابة

للشرط الذي اشترطه (أولمرت) على عباس كي يتم إحراز أي تقدم في عملية المفاوضات؛ وهو (اجتثاث) حماس، ونزع الأسلحة «غير الشرعية»، وعودة منظمة «التحرير» إلى غزة بعد «تحريرها»!

- شكلت الاستجابة العربية الجماعية لدعوة بوش إلى حضور مؤتمر (أنابوليس) إشارةً واضحة على أن النظام العربي مستعد لإقامة تحالف أمريكي إسرائيلي عربي ضد من تعدهم الولايات المتحدة أضلاعاً جديدة في محور الشر، وقد مثل ذلك المحور وقت انعقاد مؤتمر (أنا بوليس) كل من إيران وسورية و(حزب الله) وحماس. وقد كانت الدعوة غير المباشرة لذلك التحالف محاولةً مكشوفة لتوسيع نطاق ما كان يسمى بالصراع العربي الإسرائيلي بطريقة معكوسة، تُضم فيها أطراف عربية وإسلامية إلى المعسكر الإسرائيلي «المعتدل» ضد من يفترض أنه «معسكر التطرف» الذي لا يزال مصرّاً على معاداة اليهود!

- وسّع مؤتمر (أنا بوليس) من فرص تجديد الحديث عن تطبيع إسرائيلي عربي (جماعي)، بعد أن أصبح طبيعيّاً أن يجلس العرب جميعاً واليهود بصورة «رسمية» وجهاً لوجه، دون صراع أو حتى صراخ، مما اعتاد الناس سماعه في القمم العربية. فلم تُسمع كلمة، بل لم تُرَ صورة لأحد من الوفود العربية الرسمية وهو ينكر الزيف والتحريف وقلب الحقائق التي جرت على ألسنة المتحدثين الرئيسين في حق قضية طالما كانت تحشد لها الجهود والهمم في جميع المؤتمرات والقمم!

❋ أعطى المؤتمر انطباعاً بأن كل محرمات الأمس يمكن أن تكون مباحات، بل واجبات اليوم لدى أكثر الأنظمة العربية؛ فلاءات القمم تتحول إلى (نعم)، وما كان يسمى كفاحاً ونضالاً محترماً، أصبح إرهاباً محرَّماً ومُجرَّماً، بل إن الشيء

الواحد ذا الوجه الواحد أصبحت له وجوه متعددة وأبعاد جديدة؛ فمصطلح التطبيع نفسه -على سوئه ورداءته- أعطاه مؤتمر (أنا بوليس) بُعداً أسوأ وأردأ؛ فالتطبيع الذي كان يقترن دائماً بثمن أو مقايضة، أصبح بعد (أنا بوليس) عطاء بلا غطاء؛ فقد خلت الكلمات المكتوبة والمقروءة في المؤتمر من أي حديث عن تحقيق السلام أولاً، أو إكمال الانسحاب شرطاً لذلك التطبيع.

* كرّس المؤتمر خيار المفاوضات طريقاً وحيداً للعمل الفلسطيني، في الوقت الذي لم يظلل اليهود وحلفاؤهم أداءهم بأي سقف. ولما كان خيار الاستسلام العربي والفلسطيني هو خيار إسرائيلي بالأساس، اختاروه ثم ألزموا به؛ فإن أية سلطة فلسطينية معترف بها لن تستطيع الخروج عن إطار ذلك الخيار، وستظل إذا خرجت عنه، خارجةً عن «الشرعية».

* المؤتمر في النهاية لم تتعد حدوده أن يكون تكراراً لمحتوى (خارطة الطريق) في قراءتها الإسرائيلية، ووعداً من أمريكا لـ(إسرائيل) بالوفاء بالضمانات الأمنية وبصيغة (الدولة اليهودية) التي منحها بوش لشارون في مؤتمر العقبة في أبريل (نيسان) عام ٢٠٠٤؛ ولهذا ذكّر (أولمرت) (بوش) بوعده عن هذه الضمانات الأمريكية.

* الكلمات التي ألقيت في المؤتمر كانت تعيد وتزيد في الكلام عن (أمن إسرائيل) بوصفها دولة «يهودية»، يعني خاصة باليهود. ووصف (إسرائيل) بأنها «دولة يهودية» هو تعبير جديد على الإعلام العلماني العربي، الذي كذب كثيراً وصدق نفسه في أنه لا شيء لدى أعدائنا الصهاينة إلا العلمانية، وأننا لو تحدثنا

عن الإسلام فسنضطرهم أن يتحدثوا عن اليهودية . وقد أوضح المؤتمر أن (يهودية) الدولة الإسرائيلية أصبحت مطلباً رسميّاً علنيّاً، لا يطالب به اليهود وحلفاؤهم، بقدر ما يُلزمون به، وهو يعني في النهاية أن لا مكان للعرب والمسلمين في الأراضي التي احتلت عام ١٩٤٨هـ.





القسم الثالث

الجولات القادمة



عِبَر ما مضى..

انقضت الأعوام الستون، وفي صفوفنا من لم يتعظ أو يعتبر بعد، مع أن اللَّه ـ تعالى ـ قد أعذر إلى من بلَّغه الستين من آحاد الناس - كما ورد في الحديث -، فما البال بمن كانوا أمماً وشعوباً؟!

إن من رحمة اللَّه ـ تعالى ـ أنه لا يترك أمة نبيه ﷺ نهباً للأوهام، أو هملاً في الأنام، بل إنه ـ سبحانه ـ يجدد فيها الأمل ويصلح لها العمل أولاً بأول عن طريق السنة الإلهية في تجديد الدين؛ لأن هذه الأمة ـ وعلى الرغم من كل شيء ـ هي خير أمة أخرجت للناس، فمن للناس إذا عم الشرُّ خيرة الناس؟!

أحسب أننا لو طال بنا العمر عشر سنوات أُخَر، لن نحتاج إلى حديث آخر عن (سبعين عاماً من الفشل)، فالفشل قد بدأت غيومه ترحل من فوق رؤوسنا، ليعشعش فوق رؤوس أعدائنا؛ وذلك منذ أن أعاد اللَّه في الأمة روحاً كانت قد فارقتها، وقارفت الابتعاد عنها، ألا وهي روح الجهاد والاستشهاد تحت راية الإسلام المحض والتوحيد الخالص. إن ذلك كفيل - بإذن اللَّه - أن يعوّض أمتنا

عن الستين عاماً الماضية في الفشل، فقليل من أعوام من النصر المتواصل؛ يمكن أن نلم فيها شعَثنا، ونرقع فتقنا، ونوحد فرقتنا، لكن ذلك رهن بأن يترك أرباب الفشل الساحة إلى أصحاب الصدق في القول والإخلاص في العمل، حيث إن هؤلاء حقّاً قد ضاعوا ـ وأضاعوا ـ عندما غرروا بالأمة وأغروا الأعداء بها.

ليت هؤلاء الزعماء الذين وضعوا أنفسهم في واجهة القضية الإسلامية، قد قرؤوا ما حكاه اللَّه عن أعدائنا أو فهموه عندما عرّفنا بهم، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٥ - ٤٦]، فهم أعداؤنا، والله أعلم بهم، وقد بين لنا طباعهم وفضح دخلائهم.

ليت هؤلاء الزعماء سمعوا كلام اللَّه عندما وصف أعداءنا طول سني ذلك الصراع وقبله وبعده، بِخِلالٍ وخصالٍ لم ولن يتخلوا عنها، حيث قال - تعالى -: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

ليتهم عرفوا من القرآن أنهم لا أمان لهم ولا سلام معهم. قال - تعالى -: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

إن هؤلاء اليهود سيكون لهم دائماً السبق والتفوق والاختراق كلما دُعوا إلى (سلامٍ) يعرفون كيف يقامرون على مائدته، ويلعبون بمفاوضيه. أما إذا دُعوْا إلى النزال وفي الأمة رجال؛ فحالهم هو ما حكى اللَّه عندما قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ

النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة: ٩٦]، وعندما قال: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًا وَلا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٢ - ٢٣].

إذن، فقطار السلام لا يركن إليه اليهود إلا للوصول عبر محطاته إلى مزيد من استلامنا، فإذا أوصلونا إليه وتجردنا من سلاحنا، عادوا يدقون طبول الحرب، فلن يتركونا مستسلمين، ولا حتى مسلمين: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢].

إن الأعوام والعقود تمر، وكأن اليهود المغتصبين لأرضنا المقدسة، لم يتنزل فيهم قرآن، ولم تجرِ بشأنهم أحداث في السيرة، ففي الوقت الذي تُكتب فيه هذه السطور؛ مر أربعون عاماً على ضياع القدس وأسر الأقصى، وستون عاماً على اغتصاب اليهود فلسطين، ونحو تسعين عاماً من احتلال الإنجليز لها، وما يزيد عن قرنٍ ونصف من بداية التآمر عليها بالتخطيط لما صار يسمى بـ (أزمة الشرق الأوسط)، وبعد تضحيات ضخمة في حروب كبرى فاشلة، وتنازلات فادحة في عمليات (سلام) خاسرة.. بعد كل ذلك ها نحن نرى تلك الأزمة تقف بأطرافها - بعيداً عن الإسلام - عند طريق مغلق وأفق مسدود، وأمل لا رجاء به إلا في رحمة الله اللطيف بعباده.

حصار متواصل يُشارك فيه القاصي والداني، وتآمر جديد يتحالف فيه القريب مع البعيد، وأعداء جُدد في الداخل لا يقلون شراسة عن أعداء الخارج، وأعباء حياتية إلى جانب التحديات السياسية والأمنية والاقتصادية، وتلاعب ومكر

ونفـاق على أعلى مسـتوياته الرسمـية، وابتزاز وانتهازية من الفرق البدعية. . قتل وأسر، هرج ومرج، ونـار وتضييق ودمار، دون قدرة على نصرة من قريب أو بعيد! ولم يعد هناك مخرج إلا الهروب. . نعم! الهروب إلى الله، بل الفرار إليه، فهذا هو المخرج أيها المجاهدون والمرابطون: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

إنَّ الفـرار إلى الله فـي هذه المرحلة ليس سيراً إلى مجهول، أو ذهاباً إلى عـدم؛ بل إنه انطـلاق جـديد مطلوب، وفق خطٍّ إلهي محسـوب؛ أظهرته الآيـات، وفصّلته الأحـاديـث، وبيَّنتْه مجريات السـنن الإلـهية فـي القديم والحديث. إنّه طريق لا يمكن أن تكون له نهاية إلّا النصر بإذن الله، بل النصر القريب؛ لأنّه طريق طائفة اقترن اسمها بالنصر؛ هي الطائفة المنصورة التي أخبر النبي ﷺ أنّها ـ وإن تفرقت بعض الأزمان في بعض الأمصار ـ ستتركز مع مرور الزمن في بيت المقدس وما حول بيت المقدس.

لن أعيد الخوض هنا في تحاليل السياسة وتشعباتها وتقلباتها، وبخاصة في الآونة الأخيرة؛ فقد أصبح الأمر أكبر من حِيَل الساسة وأعقد من دهاليز السياسة التي لم تعد توصل إلّا إلى طريق التيه. ومع تلك الورطات والارتباكات؛ فإنّ الأمر يتجه بقوة نحو الوضوح العقدي الصارخ على المستويات العالمية والإقليمية والمحلية، بحيث صارت المواقف واضحة وضوح الشمس: قوم معتدون مغتصبون كافرون؛ هم اليهود وحلفاؤهم من النصارى، يتواطأ معهم ويدخل في حلفهم ظاهراً أو باطناً أقوام زائغون منافقون، في خطة فساد وعناد، تهدف في النهاية إلى إسكات صوت الإسلام في فلسطين، ولكن. . هيهات!

هذا القسم من ذلك الكتاب مخصص للتذكير بأمور، أعلم أن الكثير منها ليس بجديد، ولكن متى كانت الذكرى تحتاج لجديد؟! فأعظم الذكرى التي تنفع المؤمنين، إنّما تكون بالأمر العتيد الذي كثيراً ما نغفل عنه في زحمة الأحداث وتقلبات المراحل وتلبيسات الشياطين.

معانٍ عظيمة في النصر والهزيمة

لا ريب أن كل جهود المجاهدين في فلسطين وغيرها واجتهاداتهم إنّما تروم في النهاية تحقيق النصر أو بعض النصر، بالتغلب على المشكلات سياسية كانت أو عسكرية أو أمنية أو اقتصادية، ولكن البُعد شبه الغائب عند بعضنا؛ هو إدراك أن أي نجاحات ـ بالمنظور الإسلامي ـ لا بد أن تستند إلى رؤى شرعية واضحة أو تنطلق منها؛ تُبنى عليها السياسات وتُتخذ على وفقها المواقف؛ فلسنا مخيَّرين ـ ما دمنا مسلمين ـ في أن نخالف بين الموازين، أو نغيّر في المعايير التي نفصل بها بين الأعداء والأولياء، والتي تُحدد على أساسها المنطلقات والسياسات.

طريق الانتصار ليس مجرد بذلٍ وتضحيات، أو رسم مخططات وسياسات؛ فكل ذلك إن لم يستند إلى: (قال الله، وسَنّ رسول الله ﷺ) فإنه لا يُوصل إلا إلى المزيد من إطالة زمن الأزمة، وزيادة أمد المحنة.

لا شك أنَّ النصر مطلب المؤمنين جميعاً في كل عصر ومِصْر؛ إذ به يُحق الله الحقّ ويبطل الباطل؛ وتتحقق العزة ويزول الذل، وتدول دولة الباطل؛ حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

لذلك فإن النصر هو الأمنية الباقية في القلوب، والأمل الشاخص أمام الأعين؛ ينتظره الصادقون، ويتشوق إلى قربه الشرفاء، ضعفاء كانوا أو أقوياء؛ فالنصر قد يكون قريباً، وقد يطول طريقه فيكون بعيداً، لكنَّ النفوس تتوق إلى النصر القريب: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣]. صحيح أن العاقبة للمتقين، ولو بعد عشرات السنين، ولكنْ للنصر القريب أسباب تطوي بُعدَه وتُقدِّم وقته، كما أن هناك من الأسباب ما يؤخرِّه، بل ما يرفعهُ ويمنعه.

إنَّ قول الله - تعالى -: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠]، يقدِّم بدهيةً عقدية، وحقيقةً رسالية، وسنةً إلهية، إذا نُسيت أو أُهملت فإنّها تتسبب في فصل صفة القرب عن وصف النصر، مع أن قُرْبَ النصر نعمة لا تقل عن نعمة النصر نفسه. والنصر القريب يزداد قرباً كلما اختصر طريقه، ولا سبيل إلى اختصار طريق الانتصار إلّا بتحقيق أسبابه (الشرعية)، ونُكرر: (الشرعية!)؛ فإذا كان النصر من عند الله فلا بد أن تُستمد أسبابه من شريعة الله، وقد قال الله - تعالى -: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُه﴾ [الحج: ٤٠]، أي: ينصر مَنْ نصر دينه ونبيه ﷺ.

بوسعنا إذن أن نقترب من النصر ـ بإذن الله ـ أو نبتعد عنه ـ عياذاً بالله ـ ولهذا دعانا الله للأخذ بأسباب الاقتراب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

قال الطبري في تفسيرها: «إن تنصروا الله؛ بنصركم رسوله محمداً [ﷺ] على أعدائه من أهل الكفر به، وجهادكم إياهم لتكون كلمته العليا؛ ينصركم عليهم ويظفركم بهم؛ فإنه ناصر دينه وأولياءه»[1].

(١) تفسير الطبري ٢٢/١٥٩.

حقيقة النصر

نعلم أن المجاهدين في فلسطين يجتهدون - زادهم الله توفيقاً - في الاقتراب من تلك المعاني؛ ولذلك فإن الكلام هنا عام، لا نخص به الفصائل المعروفة الآن فقط، بل نريدها هي وغيرها ممن سينضم إليها أو يلتحق بها، فلا يزال الطريق طويلاً، وستظل الحاجة ماسةً للتأسيس على معانٍ صحيحة.

جوهر الانتصار في الإسلام هو ما أشارت إليه غايات القتال والجهاد في سبيل الله، وأهمها ألّا تكون في الأرض فتنة بسبب علو الشرك والكفر، وأن تكون الدينونة لله، ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾ [**الأنفال**: ٣٩]، وعندما تتحقق هاتان الغايتان، فإن طرق الخير تنفتح بالنصر؛ وأعظمها: باب الهداية والاستقامة؛ وبذلك يكون نصرنا انتصاراً لدين الله، ومفتاحاً للطريق إليه وعودة النّاس له عز وجل. وقد حَوَتْ (سورة النصر) إشارة باهرة إلى هذا المعنى، في قول الله - تعالى -: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**

﴿(١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ - ٣].

ففتح الطريق إلى الله وتيسير السير إليه هو المعنى الأساس لأنْ يكون الجهاد (في سبيل الله)؛ ولهذا اقترنت آيات الجهاد والقتال في نصوص الوحي بِذكر (سبيل الله). وسبيل الله ـ كما قال المفسرون ـ هو: «طاعة الله»؛ فعندما يقول الله في آيات عديدة: ﴿قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فالمعنى: قاتلوا في طاعة الله، وعلى هذا فكل جهاد لا يكون في طاعة الله ووفق دين الله؛ فإنه لا يكون في سبيل الله.

وقد سُئل رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على ميقاتها»، فقال السائل ـ وهو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ـ: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين»، قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»[1]، يعني في طاعة الله.

ولما سُئل: أيُّ النّاس أفضل؟ قال: «مؤمنٌ يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله»[2].

وقد سُئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُرى مكانه؛ أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله»[3]. وعلى هذا، فمعنى القتال لتكون كلمة الله هي العليا، هو أن تكون طاعته هي الهدف الأعلى والغاية الأسمى

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٢)، ومسلم (٨٥).
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٦)، ومسلم (١٨٨٨).
(٣) أخرجه مسلم (١٨٤٨).

للمقاتلين المجاهدين.

والقتال في غير سبيل الله لا يوصل إلى نصر الله، ولا يُبلِّغ الناس رضى الله - سبحانه وتعالى -، بل يؤدي إلى السخط والحبوط وميتة السوء. قال رسول الله ﷺ: «من قاتل تحت راية عُمِّية، يغضبُ لعَصَبَة أو يدعو إلى عَصَبَة أو ينصرُ عَصَبَة، فقُتِل؛ فقِتلة جاهلية»[1]. وفي رواية: «من قُتِل تحت راية عُمِّية، يدعو عصبية أو ينصر عصبية؛ فقتلته جاهلية».

والراية العمية - بضم العين وكسر الميم وتشديدها - هي عكس الراية الواضحة؛ فهي الاجتماع على أمر مجهول لا يُعرف إن كان حقاً أم باطلاً طاعة أو معصية. قال النووي - رحمه الله -: «هي الأمر الأعمى لا يتبين وجهه، كذا قال الإمام أحمد». وقال: «هي أن يُقاتل لشهوة نفسه وغضبه لها، ويُؤيد هذا الحديث المذكور: (يغضب للعصبة، ويُقاتل للعصبة)، ومعناه: إنما يُقاتل عصبيةً لقومه وهواه»[2].

وإذا كان هذا يقال فيمن يقاتل على أمر مجهول، أو على عصبية جاهلية قبلية أو عنصرية أو حزبية غير شرعية؛ فما الحال فيمن يقاتل مع الكفار، أو يقاتل نيابة عنهم؟! هل يُعدُّ هذا أخاً، أو شريكاً، أو رفيق سلاح؟!

إن غياب هذه المعاني الشرعية (البدهية) وإحلال الشعارات الدنيوية غير الدينية الدخيلة محلها عند بعض النّاس؛ هو ما يهوِّن قضايانا، ويفضّ الصادقين عنها، وهذا ما حدث للقضية الفلسطينية طوال العقود السابقة التي رُفعت فيها

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٠).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٢/ ٤٤١).

الرايات العمية العلمانية، وغابت فيها الرايات الإسلامية.

ولما بدأ ظهور الأُطروحات الإسلامية، بظهور الفصائل الجهادية على أرض فلسطين في أواخر عقد الثمانينيات الميلادي، أي بعد أربعين عاماً من احتلال اليهود لها تشبه سنوات التيه؛ مسَّت الحاجة إلى ترشيد هذا الجهاد وتقويمه ودعمه؛ حيث إن النُقلة من القاع إلى القمة لم تكن بالمهمة السهلة، والمجاهدون دائماً يحتاجون إلى التسديد والتقويم والتناصح والتعاون على البر والتقوى، ولا عصمة لشخص أو فصيل أو جماعة بحيث لا تحتاج إلى التناصح أو التذكير أو التقويم.

إن الجهاد عندما يكون في سبيل الله وعلى طاعته حقاً؛ فإن الانتصار هنا يكون للمنهج المنَزَّل من السماء، قبل أن يكون للجنود المرصوصين على الأرض؛ ولذلك فإنّ انتصار المنهج - ولو كُسِرت الجيوش واستُشْهِد الجنود - لا يُسمى هزيمة؛ فالمنهج الحق لا يهزم؛ ولذلك لم يُهزم رسولٌ قط، وإنما يُبتلى أو يُصاب.

أمّا الأتباع فإن حاملي الحق منهم لا يُهزمون أيضاً هزيمة تطول أو تعم في الأرض، حتى لو ارتفعت أرواحهم إلى السماء مع الشهداء؛ فإن قضيتهم تبقى الأساس في هداية النّاس؛ فأصحاب الأخدود لم يُهزموا، وغلام الأخدود لم يُهزم، وأصحاب النبي ﷺ لم يُهزموا هزيمة عامة، وإنّما تلقوا درساً في طريق الانتصار كان سبباً في انتصارات أعظم، وكذلك فإنّ الشهداء المشهود لهم بالصدق في عصرنا لم يُهزموا، وإنّما ابتلوا أو أُصيبوا؛ لأنّ المناهج التي حملوها وحموها بدمائهم وأشلائهم لم تسقط ولم تُهزم. ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا

وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ – ١٤٨].

إن الهزيمة بمعناها الثقيل الصريح لم تنسب إلى المؤمنين أبداً في القرآن، ولكنها نُسبت إلى الكافرين، كما جاء في قول الله ـ تعالى ـ عن هزيمة العماليق الوثنيين في فلسطين أمام داود ـ عليه السلام ـ وجنوده: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

لقد بدت أمامي من خلال استعراض الآيات التي ذُكر فيها النصر في القرآن ملاحظة عجيبة! حيث وجدتُ أنّ النصر لم يُنسب بلفظه قط إلى الكفار! قصارى ما يُمكن أن يُنسب إليهم هو (الغَلَبة)، والغلبة قهر قوة مادية لقوة مادية. صحيح أن بعض الكفار قد ينتصر بعضهم على بعض، لكن نصوص الوحي تُعبِّر عن ذلك بالغلبة أو الظهور فقط؛ لأن الأمر كما قال الله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، ولذلك لم يقل الله ـ تعالى ـ: انتصر الفرس، أو انتصر الروم، وإنما قال ـ سبحانه ـ: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٢ – ٤].

وقد لاحظت أيضاً أن النصر يقترن دائماً باسم الله ويسند إليه سبحانه؛ مما يُفهم منه أن نصره ـ عز وجل ـ لا يُمنحُ لمن حاد عن منهجه؛ فهو سبحانه (النَّاصر) و (النَّصير)؛ ولعل هذا هو السبب في أن كثيراً من المفسرين ذهبوا إلى أن قول الله ـ تعالى ـ في آية الروم: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤ – ٥]، إنما المقصود به نصر الله للمؤمنين المسلمين في غزوة بدر على مشركي قريش؛ حيث كان هذا النصر متزامناً مع ما وقع من غلبة الروم على الفرس[١].

ومع أنَّ الكفار قد ينتصر بعضهم على بعض انتصاراً مادياً محسوساً، غير أنهم لا ينتصرون على المؤمنين أبداً، وإن غلبوهم أو نالوا منهم في الميادين في بعض الأحايين. وهذه الغلبة أو المصيبة التي تصيب المؤمنين أحياناً لا تكون أيضاً إلا بنوع من التفريط في أسباب النصر الشرعية؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٥ – ١٦٦].

ويلاحظ هنا أيضاً أن لفظ الهزيمة لم ينسب لهم، وإنّما سُمي ما حدث مصيبة.

---

(١) انظر تفسير الآية في: الطبري (٦٦/ ٢٢)، والتحرير والتنوير أول سورة الروم.

للنصر أقوام

هناك من يهيئهم الله - تعالى - لِتَنَزُّل النصر الإلهي عليهم، وهؤلاء هم أصلحُ النّاس أعمالاً وأقربهم امتثالاً للحق وأخذاً به، ثم الأمثل فالأمثل، وهؤلاء يكرم الله الأمة بهم من أجل إخلاصهم. ولذلك كان أبو الدرداء يقول لأصحابه قبل المعركة: «عملٌ صالحٌ قبل القتال؛ فإنما تقاتلون بأعمالكم»[1]. وقد بوَّب البخاري ـ رحمه الله ـ في كتاب الجهاد باباً بعنوان: (عملٌ صالحٌ قبل القتال)[2]. فالنجاة من فتنة الأعداء والانتصار عليهم لا يكون بقوة السلاح، بقدر ما يكون بكثرة الصلاح وقلة الخَبَث، ليس في صفوف المجاهدين فحسب، ولكن في عموم الأمة التي تُمنَح النصر عن استحقاق، أو تخضع لسنن الابتلاء والتمحيص والتطهير.

وليس من قبيل الصدف أن يستقر وصفُ الخاصة من الفرقة الناجية من هذه الأمة بـ (الطائفة المنصورة)، وهو الوصف المفهوم من الحديث المتواتر: «لا تزال

---

(١) أخرجه عبد الله بن المبارك في كتاب الجهاد، ص ٦١، رقم (٥).

(٢) صحيح البخاري (٦/ ٢٤).

عصابةٌ من أمتي يُقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم كذلك»[1].

وحتى لا يقول قائلٌ: إن الحق هو كل ما يمكن أن يكون دفاعاً عن قضيةٍ عادلة، ولو كانت قوميةً أو وطنيةً أو تحت أية راية عمية علمانية؛ فإن الرواية الأُخرى من الحديث تُبيّن أن هذا (الحق) - الذي ينصر الله المتمسكين به والقائمين عليه - هو دين الإسلام نفسه؛ ففي رواية أبي أُمامة من ذلك الحديث جاء قول الرسول ﷺ: «لا تزال طائفة من أُمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، إلّا ما أصابهم من لأْواء، فهم كالإناء بين الأكلة، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك»[2]. ونلاحظ هنا - أيضاً - أن الهزيمة لم تلحق بهم وصفاً، وإنما جاء وصف اللأواء، وهو المصيبة أو البلاء الناجم عن شدة التربص بهم.

ووصْفهم بأنهم «ظاهرون» هو وصف بالانتصار؛ فوصف (الطائفة المنصورة) مأخوذ من ذاك الظهور «على الحق ظاهرين»، «على الدين ظاهرين»، وهذا معناه أنّهم لا يُهزمون هزيمة كاسرة قاهرة أبداً، وإنما يبتلون بقدر ما يُصلحهم. وقد كان من دعاء النبي - ﷺ - وثنائه على ربه - عز وجل - أن يقول: «اللهم لا يُخلف وعدك، ولا يُهزم جندك»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٤)، وحديث الطائفة المنصورة له روايات كثيرة، عدها بعض أهل العلم متواترة، منهم ابن تيمية في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٩)، والسيوطي في قطف الأزهار، عند كلامه على حديث رقم (٨١)، وعده الزبيدي أيضاً من الأحاديث المتواترة في كتابه (اللالئ المتناثرة في الأحاديث المتواترة) ص (٦٨).

(٢) رواه ابن جرير الطبري في مسند عمر (٢/ ٨٢٣)، وإسناده صحيح.

(٣) رواه النووي في الأذكار (١١١) بإسناد صحيح.

انتصار الطائفة المنصورة لا يكون إلّا بالحق وللحق؛ فالحق مقترن بمنهجهم وبغايتهم وبرايتهم، لهذا وُصفوا في الحديث بأنهم «على الحق ظاهرين»، وأنهم «يُقاتلون على الحق».

وهذا الحق ليس شيئاً آخر غير ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، ولذلك فإنّه ﷺ عندما أخبر عن افتراق هذه الأمّة إلى ثلاث وسبعين فرقة، بعد افتراق اليهود ثم النصارى على إحدى وسبعين ثم اثنتين وسبعين فرقة؛ سُئل - عليه الصلاة والسلام - عن تلك الفرقة الناجية؛ فقال: «من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي»(١).

إنّ رابطة المنهج الحق هي الرابطة الوحيدة للطائفة المنصورة والفرقة الناجية من أهل السنة؛ وإن اختلفت لغاتُهم، وتفرقت أوطانهم، وتعددت قضاياهم، ولهذا لا يمكن القول بأن شعباً بعينه، أو جماعة بخصوصها، أو بقعةً بذاتها، هي موضع الحق أو موطنه في كل الأحوال، وقد قال الإمام النووي - رحمه الله - عن تلك الطائفة: «ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونوا متفرقين في أقطار الأرض»(٢)، وإن كان هذا لا يمنع من تجمُّعهم بحسب ظروف الزمان وصروفه من مكان إلى مكان؛ حيث يكثرون في أزمان في أمكنة، ويكثرون في غيرها في بقاع أخرى.

وكلما تقارب الزمان ستتحول الطائفة المنصورة إلى بيت المقدس وأكناف

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٢٦٤١)، والآجري في الشريعة (١/ ١٦)، والمروزي في السنة ص ١٨، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة رقم (١٤٥/ ١٤٧)، وحسنه الترمذي لشواهده الكثيرة، انظر: تحفة الأحوذي (٣/ ٣٦٨).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (١٣/ ٦٧).

بيت المقدس، سواء كان ذلك من ساكنيها أو المهاجرين إليها، فقد قال النبي ﷺ: «ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم»(١)، ومعلوم أن هجرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ كانت من العراق إلى الشام.

وقد قال الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «دلَّ الكتاب والسنة وما روي عن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مع ما عُلِم بالحس والعقل: أن الخلق والأمر ابتداءً من مكة أم القرى؛ فهي أم الخلق، وفيها ابتدأت الرسالة المحمدية التي طبق نورها الأرض، وهي التي جعلها الله قياماً للنّاس: إليها يُصلون ويَحجُّون، ويقوم بها ما شاء الله من مصالح دينهم ودنياهم؛ فكان الإسلام في الزمان الأول ظهوره بالحجاز أعظم. ودلت الدلائل المذكورة أن ملك النبوة بالشام والحشر إليها، فإلى بيت المقدس وما حوله يعود الخلق والأمر، وهناك يحشر الخلق، والإسلام في آخر الزمان أظهر بالشام»، وقال أيضاً، وهو يعدد فضائل الشام كما دلت عليه النصوص: «وفيها المسجد الأقصى، وفيها مبعث أنبياء بني إسرائيل، وإليها هجرة إبراهيم، وإليها مسرى نبينا ومنها معراجه، وبها ملكه وعمود دينه وكتابه، وطائفة منصورة من أمته، وإليها المحشر والمعاد كما أن مكة المبدأ؛ فمكة أم القرى، من تحتها دُحيت الأرض، والشام إليها يُحشر النّاس، كما في قوله: ﴿لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢]، نبه على الحشر الثاني، فمكة مبدأ وإيليا معاد في الخلق وكذلك في

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٢٤٨٢) وسكت عنه، وقد قال في رسالته لأهل مكة: كل ما سكتُّ عنه فهو صالح، وصححه الألباني، انظر: الصحيحة رقم (٣٢٠٣).

الأمر؛ فإنّه أُسريَ بالرسول من مكة إلى إيليا، ومبعثه ومخرج دينه من مكة، وكمال دينه وظهوره وتمامه حتى مملكة المهدي بالشام؛ فمكة هي الأول والشام هي آخر في الخلق والأمر في الكلمات الكونية والدينية» ا. هـ[1].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٧/ ٤٣ - ٤٤).

لواء الإسلام.. ومسؤولية أهل الشام

كثيراً ما يراودني سؤال؛ فحواه: هل الأمور القدرية الغيبية كلها مجرد غيب ينتظر، أم أنّ منها ما هو شرع يُمتثل وواجب يُستحضر؟

إنّ سلفنا الكرام - رضوان الله عليهم - كانوا لا يتعاملون مع أمور الغيب كلها على أنها أمور مستورة وينبغي أن تظل مستورة حتى تُظهرها الأقدار، بل إنّ منها ما كان عندهم يُستدعى ويُتسابق إليه.

فلما علموا مثلاً أنّ الله - تعالى - سيورِّثهم خزائن كسرى وقصور قيصر، ولما سمعوا بأخبار فتح مصر، ودخول العراق، وانضمام الشام، وخضوع اليمن؛ تسارعت طلائعهم بُعيد وفاته ﷺ إلى استخراج ذلك الغيب الصادق إلى عالم الشهادة الواقع. وعندما نُقلت إليهم أخبار فتح القسطنطينية، والمناقب العظيمة المذكورة لفاتحيها؛ سارعوا وسارع من بعدهم إلى اقتناص الفرصة لنيل ذلك الشرف، وتسابقوا جيلاً بعد جيل، غير مبالين بالإخفاقات أو المعوقات لتحقيق قول النبي ﷺ : «لتفتحن القسطنطينية؛ فلَنِعْم الأمير أميرها، ولَنِعْم الجيش ذلك

الجيش!»[1] وتطبيقه.

وقد كان هذا الحديث دافعاً ووازعاً لأمراء المسلمين في التسابق إلى فتح القسطنطينية؛ للفوز بتلك المنقبة المذكورة للجيش الذي سيفتحها.

قال بشير الخثعمي - راوي الحديث -: «. . . فدعاني مَسْلَمة بن عبد الملك، فحدثته؛ فغزا القسطنطينية»، وكان معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - قد وجَّه حملة بحرية إلى القسطنطينية عام ٤٩ هـ، الموافق للعام ٦٦٩ ميلادية، وقد شارك فيها جَمْعٌ من كبار الصحابة وقت ذاك، منهم عبد الله بن عمر، وعبد الله ابن عباس، وأبو أيوب الأنصاري - رضي الله عنهم - ولكنَّ تلك الحملة لم تُحقق أهدافها، واستُشهِد أبو أيوب الأنصاري فيها، فبعث معاوية حملةً أُخرى عام (٥٤هـ - ٦٧٤م)؛ ففتح المسلمون عدداً من المدن المحيطة بالقسطنطينية.

وحملات معاوية - رضي الله عنه - إلى القسطنطينية هي التي استشهدت فيها الصحابية الجليلة (أم حرام بنت ملحان)؛ حيث إنّها كانت قد حدَّثت عن النبي ﷺ أنّه قال: «رأيت قوماً من أُمتي يركبون ثَبَجَ البحر كالملوك على الأسِّرة»، فقالت: يا رسول الله! اُدع الله أن يجعلني منهم! قال: «أنتِ منهم»[2]؛ فأرادت أن تتحقق هذه البُشرى، فخرجت مع جيش معاوية - رضي الله عنه - لغزو القسطنطينية، فماتت هناك ودُفنت بالقرب منها.

ثم وجّه الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك حملةً أُخرى في جيشٍ قُوامه

---

(١) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٨١)، وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٢٥٠).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦٢٨٢)، ومسلم (١٩١٢).

نحو مائة ألف جندي، على رأسهم أخوه مَسلمة بن عبد الملك، وكان ذلك عام (٩٨هـ، ٧١٧م)، غير أن حصار القسطنطينية لم يُفلح في فتحها هذه المرة أيضاً، على الرغم من استمرار الحصار عاماً كاملاً. ولما جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وجد أن دولة الخلافة الإسلامية في عصره أحوج إلى جيوشها من فتح القسطنطينية؛ فأمر باستقدام القوات المرابطة حول القسطنطينية لِيُقوي بها دولة الخلافة، تاركاً هذا الفتح لجيلٍ قادم. وقد تحقق ذلك الأمر القدري في شكله الشرعي على يد السلطان العثماني (محمد الفاتح) عام (٨٥٧ هـ ـ ١٤٥٣م).

هذا مثالٌ تفصيليٌّ واحد يدل على كيفية تعامل المسلمين مع أخبار الغيب من الأمور القدرية التي تتعلق بها تكاليف شرعية، وأمثلة التسابق في هذا المضمار كثيرة. ومع كل ما حدث من تسابق لفتح القسطنطينية في الأزمنة السابقة؛ فإنّها تظل تنتظر فتحاً آخر سيكون في آخر الزمان، وهو ما أخبر عنه النبي ﷺ في قوله: «الملحمة الكبرى وفتح القسطنطينية وخروج الدجال في سبعة أشهر»[1].

الشواهد كثيرة ـ لمن أراد أن يستقصيها ـ عن تطلُّع الصحابة الأخيار إلى تحقيق ما فيه خيرٌ مما صحت به الأخبار. والمقصود هنا: أن إخبار الرسول ﷺ باتجاه رايات الطائفة المنصورة وانتصابها في أرض (إيلياء) أو بيت المقدس، في زمان علو اليهود؛ لَهُو من البواعث الجاذبة للفوز بهذه المنقبة، ممن يستطيعُ ذلك من المؤمنين الأطهار القادرين على خرق حاجز الانتظار؛ الذي يحْجرُ الكثيرين عن المشاركة في هذا الفضل بدعوى ترك القضية لأهلها، أو بزعم أن أهل مكة أدرى بشعابها!

---

(١) رواه أبو داود في سننه (٤٢٩٥) بإسناد صالح؛ والترمذي (٢٢٣٨) وقال: حسن غريب.

إننا في زمان أعتقد - غير جازم - بأنّه الزمان الممتد إلى وقت الصدام الأخير مع اليهود وحلفائهم في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، بل في سائر الأرض، عندما يتحقق (العلو الكبير) الذي أخبر الله - تعالى - عنه في أوائل سورة الإسراء في قوله - تعالى -: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ [الإسراء: ٤].

حيث إنّ معالم ذلك العلو يتضاعف ظهورها مع الأيّام، وبخاصة مع ركوب اليهود للأمريكان، وتحالفهم مع غيرهم من أطراف القوى الكبرى، وهو ما يقود حتماً - والله أعلم - إلى علو كبير ربّما يفوق علوهم الشاخص اليوم على كل ما حولهم من قوى إقليمية. وليس من الممتنع - قبل دحر اليهود الأخير - أن تكون الحرب معهم سجالاً؛ فيتقلب شأنهم ما بين خفض وارتفاع، لكن الطائفة التي سترغم آنافهم دائماً هي الطائفة المنصورة من هذه الأمّة، التي حدد النبي ﷺ حقيقتهم في قوله: «هم من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي»[1].

ينبغي ألا ننسى هنا - بالمناسبة - أن (دولة الدجال العالمية) التي دلت الأخبار النبوية على ظهورها هي دولة يهود، وفيها صولة اليهود؛ فهي إمبراطورية يهودية؛ لأنّ الدجال - قائدَها - هو نفسه يهودي كما جاء في الحديث: «إنه يهودي، وإنه لا يولد له ولد، وإنه لا يدخل المدينة ولا مكة»[2]، ويخرج من بلدة تدعى (اليهودية) في إيران؛ ويدل على ذلك قوله ﷺ عن الدجال: «يخرج

---

(١) رواه مسلم (١٨)، (٥٠).

(٢) رواه ابن حجر العسقلاني في (الأسئلة) بإسناد حسن، وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٤٠).

الدجال من يهودية أصبهان»[1]. ويتبعه من تلك البلدة فقط سبعون ألفاً، كما ورد في الحديث: «يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة»[2].

وأما أن هذه الدولة ستكون عالمية؛ فيدل على ذلك قول النبي ﷺ: «يبلغ سلطانه كل منهل، لا يأتي أربعة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجد الطور، ومسجد الرسول»[3]. ولعل مما يقرب هذا الفهم أن ندرك أن وصف (بني إسرائيل) يشمل من حيث الأصل؛ الضالين من النصارى إلى جانب المغضوب عليهم من اليهود من حيث النسبة الدينية لا العنصرية؛ لأنّ موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ أُرسلا إلى بني إسرائيل، ولكن التسمية غلبت على اليهود وعلى من كان على ضلالتهم في التدين بالتوراة المحرفة. ولذلك فإنّ العلو المذكور في سورة (الإسراء) المسماة أيضاً بسورة (بني إسرائيل) هو علو للطائفتين معاً وذلك في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤] فالآية ذكرت عُلوّيْن، وهو للطائفتين معاً ـ والله أعلم ـ وهو ما يؤكد أن صِداماً حتمياً على أرض فلسطين وما حولها، سيقع بين الأمم الثلاث (المسلمين ـ اليهود ـ النصارى)، وهي الطوائف التي اختلفت – وستختلف – في شأن المسيح الحق (عيسى بن مريم) ومنتظر الضلالة (المسيح الدجال).

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٢٤٢) وصححه الألباني. وقال ابن كثير: إسناده جيد قوي على شرط الصحيح (نهاية البداية والنهاية) (١/ ٢٧).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٩٤٤).

(٣) رواه الطحاوي في مشكل الآثار (١٤/ ٢٧٦)، والهيثمي في مسند الزوائد (٧/ ٣٤٦) بإسناد رجاله رجال الصحيح.

طلائع الطائفة المنصورة في مواجهة طلائع الدجال

أعود لما ذكرته من أنّ بعض أخبار الغيب ليست قدراً ينتظر بقدر ما هي شرع يُمتثل ويُستحضر، لأُذكِّر أيضاً بأنّ الأحاديث الدالة على بقاء طائفة من هذه الأمّة على الحق، والمستوجبة لفرضية السعي لتكوينها أو تطويرها أو الالتحاق بها؛ هي نفسها الأحاديث التي يدل بعضها على أن وجود هذه الطائفة سيتركز ـ كلّما تقارب الزمان ـ في بيت المقدس وما حوله، كما أخبر بذلك النبي ﷺ في إحدى روايات ذلك الحديث؛ حيث سُئل النبي ﷺ عن مكان وجود هذه الطائفة فقال: «هم ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس»[1].

إنّ هناك دلائل وقرائن كثيرة تدل على أنّ الفصائل المجاهدة في أرض الشام وما حولها هي طلائع هذه الطائفة المنصورة المذكورة في الأحاديث ومقدماتها، كما أنّ هناك دلائل وقرائن على أنّ عصابات اليهود الموجودة الآن في فلسطين وما حولها هي طلائع دولة الدجال العالمية التي لا يعلم إلا الله متى ستقع فتنتها،

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في مسند عمر بإسناد صحيح (٢/ ٨٢٢).

والتي لن تعمر كثيراً ـ بإذن الله ـ كما دلت الأحاديث. لكن مقصودنا في هذا المقال ليس في الجدال في تفاصيل هذا النزال المستقبلي والحتمي، ولكّن النقاش في مقدماته وإرهاصاته التي يأتي على رأسها: الجواب على سؤال:

كيف يستجمع المجاهدون في بيت المقدس وما حوله أوصاف تلك الطائفة المنصورة؟

لتلك الطائفة خصائص وصفات لا بد أن يتمثلها اليومَ كل المجاهدين، وبخاصة في فلسطين التي تأخر النصر فيها كثيراً بسبب اختلاف الرايات والزعامات والمناهج. ومع أنّ كثيراً من صفات الطائفة المنصورة وخصائصها بدأ يتجمع ويتوزع على فصائل المجاهدين بمجموعها، غير أننا نرى أنّ من المهم تكرار استحضار هذه الصفات؛ ليتعلم متعلم، ويتذكر متذكر، ويعود عائد. علماً بأنّ تلك الخصائص قابلة للتحقق في أية طائفة تقوى على استجماعها في نفسها؛ لأنّها في الأصل تكاليف شرعية موجهة إلى عموم الأمة الخيرية في صورة عقائد تُعتقد، وفروض تُؤدى، وواجبات تُقام، وأخلاق تُلتزم، يفوز بفضلها من استقام عليها. وأهم هذه الخصائص والصفات:

١ ـ **الاستمساك بالحق**: لوصف النبي ﷺ أهل هذه الطائفة بأنّهم «على الحق ظاهرين»، أو «ظاهرين على الحق». ومعنى ظهورهم على الحق: التزامهم الظاهر بالدين كتاباً وسنة؛ على أُسس النهج القويم المبني على الدليل الشرعي الصحيح، والتوجه القلبي السليم؛ إخلاصاً لله، واتباعاً لرسول الله ﷺ؛ فالاتباع والإخلاص هما ركنا قبول الأعمال، كما قال الله ـ عزَّ وجلّ ـ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ

عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠].

وهنا لا يمكن أن نتصور أن يتنزَّل النصر والتمكين على غير المتسبين للحق من أصحاب الرايات الضالة؛ قوميةً كانت أو بعثيةً أو يساريةً أو ليبرالية، أو على أية صيغة علمانية غير دينية، وكذلك لن ينتصر الدين القويم أو يتمكن بطائفة ضالة خارجة في مُعتقدها عن منهاج الفرقة الناجية المتبِّعة لمنهاج الصحابة؛ إذ إن الوصف الرئيس لطائفة الحق المنصورة هو ما أخبر عنه النبي ﷺ في قوله: «ما أنا عليه وأصحابي»، أمّا الذين يُكفرون الصحابة بدلاً من تعظيمهم والتزام هديهم، مع الادعاء بتحريفهم للوحي كِتاباً وسنة؛ فإنّهم - وإن أحرزوا الغلبة في بعض الجولات - فإنّ هذا لا يُعدُّ نصراً للدين، وإن ادعى أصحابه أنّهم (حزبُ الله)، أو تلقب زعيمهم بـ (نصر الله).

٢ - القيام بالحق: فالطائفة المنصورة لا تلتزم بالحق فقط اعتقاداً أو تصديقاً، بل تقوم به تنفيذاً وتطبيقاً، ولهذا جاء وصفُ هذه الطائفة بأنّها «قائمة على الحق، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[1]. ومعنى ذلك أنّهم أهل استقامة ظاهرة كما أنّهم أهل سلامة باطنة، وأنّ دينهم دعوة يحملونها ويدعون النّاس إليها؛ أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، لا يخشون في الله لومةَ لائم، وهم على هذا يجتمعون، وحوله يتحزبون.

﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ فالقيام بأمر الدين، هو المهمة العظمى للرسل وأتباع الرسل، قال - تعالى -: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، رقم (٢٣٢٥)، ومسلم، كتاب الإمارة (٣٥٤٤).

بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

٣ ـ الدفاع عن الحق: فالطائفة المنصورة لا تعتقد الحق نظرياً فقط ولا تمتثل له عملياً فحسب، وإنّما تُدافع عنه وتبذل دونهُ المُهَج والنفس والنفيس؛ فمن أبرز خصائص أهلها المذكورة في الحديث أنّهم: «يُقاتلون على الحق»[1]، وفي رواية: «يُقاتلون على أمر الله»[2]. وهو قتال في الميادين، وليس فقط على صفحات الكتب والدواوين: «يُقاتلون على أبواب دمشق وما حولها، وعلى أبواب بيت المقدس وما حولها»[3]، فهي طائفة علم وعمل؛ جدالاً بالحق وقتالاً على الحق، وسيظل هذا شأنهم حتى تضع الحرب أوزارها في آخر الزمان، كما دل على ذلك قول الرسول ﷺ: «حتى يُقاتل آخرهم المسيح الدجال»[4].

٤ ـ الظهور بالحق: فوصفُ النبي ﷺ لهم بأنّهم «على الحق ظاهرين»، يفيد معانيَ زائدة عن معنى الاستمساك بالحق، وهذه الصفة تحتمل ثلاثة معانٍ:

أولها: أنّهم بارزون للنّاس، معروفون بهويتهم المنهجية الثابتة على الحق والمقاتلة عليه، دون مهادنة عاجزة أو مداهنة فاجرة.

وثانيها: ظهور حجتهم على النّاس؛ فهم منصورون بالحجة والبيان، قبل

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان، رقم (٢٢٥).

(٢) مسلم: كتاب الإمارة، رقم (٢٥٥٠).

(٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أبو يعلى ورواته ثقات.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٩٧)، وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

نصرهم بالسيف والسنان.

وثالثها: أنّهم في موقع الغلبة والعلو والتمكين بهذا الحق ومن أجله.

والواضح أنّ الظهور بالمعنى الثالث هو ثمرة الظهور في المعنيين الأولين. والثابت في ذلك أنّ الطائفة المنصورة، وإن اختلفت درجات ظهورها من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان، غير أنّها تستعصي على القهر والزوال والاختفاء علمياً وعملياً.

٥ ـ المصابرة على الحق: فالصفات السابق ذكرها تُبيِّن كلّها أنّ أهل الطائفة المنصورة يأخذون أنفسهم بالعزيمة، ويتواصون فيما بينهم بالثبات، وهذا ما لا يستطيعه المخذولون المُخذِّلون، الذين لا يلقى المجاهدون منهم إلّا التحبيط والتثبيط، بل الوشاية والتشويه. أمّا شأن المنصورين حيال ذلك فإنهم ـ كما أخبر النبي ﷺ ـ «ولا يُبالون من يخالفهم»[(١)]، «ولا يضرهم من خذلهم»[(٢)]، ويستمرون على نهج المصابرة والمرابطة، امتثالاً لقول الله – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٦ ـ البقاء على الحق: فالطائفة المنصورة قديمة الوجود، لم ينقطع وجودها عبر مراحل رسالات السماء، ولن ينقطع حتى تقوم الساعة؛ ففي كل الأجيال والقرون الإنسانية كانت هناك دائماً بقية تمثلها هذه الطائفة النقية، ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ

---

(١) كما في رواية سعيد بن منصور في كتاب الجهاد، رقم (٢٣٧٦) تحقيق الأعظمي.

(٢) كما في رواية مسلم عن ثوبان رقم (١٩٢١).

الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]، وهي امتداد للفرقة الناجية في كل ملة، كما دل على ذلك حديث افتراق الأمم الثلاث إلى أكثر من سبعين فرقة من كل ملة، ليس في كل منها إلا فرقة واحدة ناجية. وأول أجيال الفرقة الناجية في هذه الأمّة هم أصحاب النبي ﷺ الذين يُمثلون ذروة الخيرية في الأمّة الخيرية، والمخبَرون بأنّهم خير القرون.

وقد استلزم هذا أن يكون شرط تعظيم الصحابة والاقتداء بهم أبرز شروط الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، التي سيظل أهلها يتعاقبون كما قال النبي ﷺ: «حتى يُقاتل آخرهم المسيح الدجال»[1]، و«حتى تقوم الساعة وهم على ذلك».

إنّ المهام الجسام الملقاة على عاتق جيل النصر القادم قريباً، ليست خاصةً بحماس وحدها أو غيرها من المنظمات الجهادية الفلسطينية، بل ليست خاصةً بالفلسطينيين وحدهم، ولا بالعرب دون غيرهم، بل إنّها مهام كل إنسان رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً وسولاً؛ فمجموع هؤلاء - وإن كانوا متفرقين في أنحاء العالم - هم الذين سيمثلون اليوم، وغداً، تمكين تلك الطائفة واقعاً محسوساً، بعد أن كان أملاً منتظراً.

ويظل البقاء القدري للطائفة المنصورة مُسهِّلاً عملية بعثها ولمَّ شعثها وتوحيد صفها.

---

(١) كما في رواية أبي داود (٢٤٨٤)، وأحمد (١٩٩٢٠)، والحاكم (٤/ ٤٥٠)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

ولهذا نقول: إنّ إعداد أية طائفة مسلمة أو استعدادها في أي عصر من العصور، وفي أي مكان من الأمكنة؛ لأَنْ تكون مستوفية لخصائص الطائفة المنصورة؛ لَهو أمرٌ مقدور شرعاً ومشروع قدراً، كيف لا.. وكل خصائص الطائفة المنصورة ما هي إلا تكاليف شرعية وواجبات دينية، يُعرِض عنها الأكثرون، ويَتَشبث بها الأقلون، الذين يعوّض ضعفهم العددي والعتادي بقوتهم العملية والعلمية؟ كما حدثت بذلك السنة الإلهية التي جاء الإخبار عنها في قول الله - تعالى -: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

إنّ الطائفة الصابرة المنصورة التي سيُقاتل آخرها المسيح الدجال تواجه اليوم مسئولية الوقوف أمام دجاجلة العصر الذين يمهدون الطريق للدجال الأكبر، وليست مواجهة الدجال على أبواب بيت المقدس غداً بأولى من مواجهة طلائعه من الكفار والمنافقين داخل بيت المقدس اليوم.

اختصار خطوات الانتصار

لديَّ يقين يتأكد على مر الأيّام والسنين، وهو أنّ الاستقامة على منهاج الله تختصر المسافات، وتطوي المراحل، وتوفر وقت التجارب أمام المؤمنين في أي نوع من أنواع المواجهات والصراعات التي يخوضونها؛ فالتخبط المنهجي، والدَّخَنُ العقدي، والاضطراب القيمي والسلوكي..، كل ذلك يُؤخر النصر ويُعقد القضايا ويُطيل من عمر الأزمات. ولنا في هذه القضية بالذات (قضية فلسطين) أعظم العظة والعبرة؛ فليس أكثر من الحق فيها وضوحاً، وليس أشد من الأعداء فيها ظهوراً، وليس أعظم من المتعاطفين والأنصار لها حماساً وعدداً.. ومع هذا، وعبر أكثر من مائة عام (هي العمر الحقيقي للقضية) منذ وُضِع كتاب (الدولة اليهودية)[1]؛ فإنّ ما سُمي بـ(أزمة الشرق الأوسط)، كانت-ولا تزال-أعقد أزمات العصر وأطولها وأكثرها استعصاءً على الحل والحسم، في حين أنّ أزمات

---

(١) أصدره الصحفي النمساوي اليهودي (يتودور هرتزل) عام ١٨٩٦م)، مؤسساً بذلك الحركة الصهيونية الحديثة، التي بدأت السعي لتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين تمهيداً للاستيلاء عليها، وإقامة الدولة اليهودية فيها.

احتلال غيرها بدأت وانتهت، وأخرى كادت تنتهي في سنوات معدودة وأزمنة محدودة، وآخر ذلك ما حدث في العراق، الذي لم يمر على احتلاله إلا بضع سنوات، ومع ذلك فإنّ الطريق إلى قهر العدو المحتل فيه قد اختصر اختصاراً؛ مع ضخامة العدو، وضآلة العون، وضحالة الإمكانات لدى المجاهدين، إلّا من مدد النصر الإلهي المبين!

الأمّة في حاجة إلى استحقاق العون الإلهي لطلائع الطائفة المنصورة على أرض بيت المقدس، كما رأينا ذلك العون لطلائعه على أرض العراق: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ – ٤١].

الفهرس